أوصاف الأشراف

في سير العارفين وسلوكهم

للفيلسوف الحكيم سلطان العلماء الحبر المحقق

أبي جعفر نصير الدين الطوسي

محمد بن محمد بن الحسن

المعروف بالخواجه

٥٩٧ – ٦٧٢ هـ

ترجمة

محمد الخليلي

تحقيق وتقديم

السيد محمد علي الحيدري الحسني

The Open School
P.O. BOX 53573
CHICAGO, IL 60653-0398

ميناتور من القرن السابع لصورة

نصير الدين الطوسي(ت٦٧٢)

و الاصل محفوظ في مكتبة ملك- طهران برقم ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله في محكم كتابه العزيز :

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ
بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ
عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ

سورة لقمان الآية : ٢٢

ترجمة المؤلف

مستلة من كتاب فهرس التراث

بقلم محمد حسين الحسيني الجلالي

طبعة ١٤٢٢ للهجرة

نصير الدين الطوسي (٥٩٧ ـ ٦٧٢)**

نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي.

شارك في علوم عصره مشاركة صادقة بالدرس والتأليف، وامتاز كتابه الجوهر النضيد في الكلام بكثرة الدراسة والنقد حوله تأليفاً وشرحاً وتعليقاً من مختلف حلقات المتكلمين ومختلف المذاهب الإسلامية، وربما لأنّ بحوث العقائد كانت من أهم المواضيع المدروسة في عصره والقرون التي تلته.

وقد شرحت حياته في كتاب نصير الدين الطوسي حياته وفلسفته. المطبوع في النجف سنة ١٣٨٩ هـ.

أسند اليه المحدث النوري في المستدرك.

(*) يراجع: معجم المؤلفين ج ٣ ٢٧٥.

(**) يراجع: الأنوار الساطعة: ١١٨، المستدرك ٣ ١٠٢.

من آثاره:

١ ـ تجريد الاعتقاد:

طبع بتحقيق أخي السيد محمد جواد الجلالي في مؤسسة الاعلام الاسلامي بقم، سنة ١٤٠٧ هـ.

٢ ـ تلخيص المحصّل:

نسخة منه بتأريخ ١٠٠٢ هـ في مكتبة المرعشي بقم برقم ٦٥٢٤، صوّرتها.

٣ ـ الجبر والاختيار:

طبع طبعة حجرية سنة ١٣١٥ هـ ضمن (كلمات المحققين) بالرقم (١٧) في الصفحات (٤٧٦ ـ ٤٩٢)، وأعادت مكتبة المفيد بقم طبعه بالأوفست على الطبعة الحجرية سنة ١٤٠٢ هـ.

٤ ـ جوابات الطوسي لصدر الدين القونوي:

نسخة منه بخط محمد صادق بن محمد علي التوسركاني مؤرخة سنة ١٠٢٨ هـ في مكتبة مشكاة بطهران برقم ٢٦٨١، صورتها.

٥ ـ الفصول النصيرية:

عربه السيد ركن الدين الموصلي الجرجاني (تلميذ المؤلف)، وشرحه السيد عبد الوهاب بن طاهر الاسترابادي المتوفى بعد ٨٣٣ هـ، وفي مكتبة أمير المؤمنين نسخه منه مؤرخة بسنة ٨٨٣ هـ برقم ١٢٥ في ١٣٠ صفحة

٦ ـ قواعد العقائد:

نسخة منه بخط ضياء الدين بن سديد الدين الاسترابادي مؤرخة ٨٤٣ هـ في مكتبة أمير المؤمنين برقم ٢٣٠٨.

ويراجع سائر مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة إلى ماكتبته في «نصير الدين الطوسي، حياته وفلسفته».

دليل الكتاب

١ ـ مقدّمة التحقيق
٢ ـ تمهيد حول المؤلّف
٣ ـ سطور عن حياة الإمام المحقّق الطوسي
٤ ـ مقدّمة المترجم
٥ ـ متن الكتاب ، مع التعليقات
٦ ـ الخاتمة
٧ ـ الفهرس

قال رسول الله ﷺ :

ياعلي ألا أخبركم بأشبهكم بي خلقاً

قال : بلى يارسول الله ، قال :

« أحسنكم خلقاً ، وأعظمكم حلماً »

« وأبرّكم لقرابته »

« وأشدّكم من نفسه انصافاً »

باب النوادر كتاب من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج ٤ ص ٣٧٠

مقدّمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، المبعوث لتمهيد قواعدِ الدّين ، وتهذيب مسالكِ اليقين ، الناسخ بشريعته المطهّرة شرايع الأوّلين ، وعلى الأئمّة المعصومين من آله ، والتابعين لهم بإحسان .

انّ من أهمّ الأُمور التي ينبغي النظر والتوجّه إليها اليوم هي حضارتنا المتوخّاة التي أتى بها نبيّنا الكريم محمّد ﷺ ليتسنّى لنا بلوغ الكمال والجمال من السلوك والسير إلى الله تبارك وتعالى .

فلو أذعنّا إلى القيم الحاكمة في النظام الانساني وبالالتفات إلى ما تكنّه العقول الفعّالة بالأخذ والاهتداء بهديها من الخُلق والعرفان والتي هي مكمّلة للتديّن والمبادئ الحضارية المنشودة والمضي بالسنن القائمة إلى ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت مقارنةً بالذي وصلت إليه الناس في بلدان العالم ـ من التخلّف والتفسّخ والانحطاط الخُلقي والحضاري ـ ولا مناصّ ، إذ اليوم كلّنا مكلّفون ،

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٤٣ .

من العلم والعمل الجادّ والتعقّل كي يسود الجميع الرقي والتعالي والكرامة والسؤدد والوئام.

وعلينا أن لا نفوّت الفرصة وأن لا تفوتنا الفرص حيث قال وصي رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إضاعة الفرصة غصّة، فأحمد الله أن سنحت لي الفرصة بأن أُقدّم بإيجاز عن أعاظم البشرية ذوي الأخلاق العالية والمعارف الجليلة اللّامتناهية لكتاب **(أوصاف الأشراف)** للفيلسوف الإسلامي الكبير المحقّق محمّد بن محمّد بن الحسن المعروف بـ**(الخواجه)** كي يكون مدخلاً لما أردنا من تحقيقه واحياءً للتراث. وأرجو أن أكون قد استفدت وأفدت كما في المنصوص عن الإمام علي عليه السلام: « **ما أكثر العبر وأقلّ الاعتبار** ».

فأملي ورجائي من روّاد العلم والمعرفة الأخذ بمضامينها والتواصي بها.

المدخل:

في المروي عن رسول الله ﷺ قال:

« **سيد الأعمال في الدارين العقل، ولكلّ شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته لربّه** »[1].

---

(١) بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ج١ ص٩٦ الحديث٤٢ ط دار إحياء التراث بيروت ـ لبنان.

وقال ﷺ :

« استرشدوا العقل ترشدوا ، ولا تعصوه فتندموا »[1].

وفي المروي عن وصي رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قال :

العقول أئمّة الأفكار ، والأفكار أئمّة القلوب ، والقلوب أئمّة الحواسّ ، والحواسّ أئمّة الأعضاء[2].

العلّة التي من أجلها صار في الناس من هو خير من الملائكة وصار فيهم من هو شرّ من البهائم

في المروي عن وصي رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قال :

انّ الله عزّوجلّ ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة ، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل ، وركّب في بني آدم كليهما ، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ،

---

(١) بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ج١ ص٩٦ الحديث٤١ ط دار إحياء التراث بيروت ـ لبنان .

(٢) بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ج١ ص٩٦ الحديث٤٠ ط دار إحياء التراث بيروت ـ لبنان .

ومن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم[1].

(النفس وأسماؤها وقواها الأربع)[2]

تجرّد النفس إنّما هو التجرّد في الذات دون الفعل لافتقارها فعلاً إلى الجسم والآلة، فحدّها أنّها جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته، وهو حقيقة الانسان وذاته، والأعضاء والقوى آلاته التي يتوقّف فعله عليها، وله أسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات، فيسمّى (روحاً) لتوقّف حياة البدن عليه و (عقلاً) لإدراكه المعقولات و (قلباً) لتقلّبه في الخواطر، وقد تستعمل هذه الألفاظ في معانٍ أُخرى تعرف بالقرائن.

وله قوى أربع: قوة عقلية ملكية، وقوة غضبية سبعية، وقوة شهوية بهيمية، وقوة وهمية شيطانية.

و (الأُولى) شأنها إدراك حقائق الأُمور، والتمييز بين الخيرات والشرور، والأمر بالأفعال الجميلة، والنهي عن الصفات الذميمة.

---

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق المتوفّى سنة ٣٨١هـ ط مطبعة الحيدرية في النجف الأشرف سنة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

(٢) للعلّامة النراقي (أعلى الله مقامه) المتوفّى سنة ١٢٠٩هـ في كتابه جامع السعادات ص ٤٥ ج ١ ط النجف الأشرف سنة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

و (الثانية) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء، والتوثّب على الناس بأنواع الأذى.

و (الثالثة) لا يصدر عنها إلّا أفعال البهائم من عبودية البهائم من عبودية الفَرْج والبطن، والحرص على الجماع والأكل.

و (الرابعة) شأنها استنباط وجوه المكر والحيل، والتوصّل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع.

والفائدة في وجود القوّة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس، وفي وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشيطانية ويقهرهما عند انغمارهما في الخداع والشهوات، وإصرارهما عليهما لأنّهما لتمردّهما لا تطيعان العاقلة بسهولة، بخلاف الغضبية فإنّهما تطيعانها وتتأدّبان بتأديبها بسهولة.

ولذا قال افلاطون في صفة السبعية والبهيمية: (أمّا هذه أي السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأمّا تلك أي البهيمة فهي بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع).

وقال أيضاً: (ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلاً، فمن لا تطيعه الواهمة والشهوية في إيثار الوسط فليستعن بالقوّة الغضبية المهيّجة للغيرة، والحمية حتّى يقهرهما) فلو لم يمتثلا مع الاستعانة فإن لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دلّ على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما، وحينئذ لا يرجى صلاحه، وإلّا فالإصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله، فإنّ سبل الخيرات مفتوحة، وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة.

﴿وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

والفائدة في القوة الوهمية إدراك المعاني الجزئية، واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصّل بها إلى المقاصد الصحيحة.

وبيان ذلك أنّ الواهمة والخيال والمتخيّلة ثلاث قوى متباينة، ومباينة للقوى الثلاث الأُوَل، وشأن الأُولى إدراك المعاني الجزئية، وشأن الثانية إدراك الصور، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما. وكلّ من مدركاتها إمّا مطابق للواقع، أو مخترع من عند أنفسها من غير تحقّق له في نفس الأمر أيضاً، وأمّا من مقتضيات العقل والشريعة، ومن الوسائل إلى المقاصد الصحيحة، أو من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة، وعلى الأول يكون وجودها خيراً وكمالاً، وإن كان وجودها على الثاني شرّاً وفساداً. والحال في جميع القوى كذلك.

هذا وقيل: ما ورد في القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والأمّارة بالسوء، إشارة إلى القوى الثلاث أعني العاقلة والسبعية والبهيمية.

والحقّ أنّها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها، فإذا غلبت قوّتها العاقلة على الثلاث الأُخر، وصارت منقادة لها مقهورة منها، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سمّيت «مطمئنة»، لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهي، وميلها إلى ملائماتها التي

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

تقتضي جبلّتها ، وإذا لم تتمّ غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع ، وكلّما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سمّيت « لوّامة » . وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سمّيت « أمّارة بالسوء » لأنه لما اضمحلّت قوّتها العاقلة وأذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة ، فكأنّما هي الآمرة بالسوء .

ثمّ مثل اجتماع هذه القوى في الإنسان كمثل اجتماع ملك ، أو حكيم وكلب وخنزير وشيطان في مربط واحد . وكان بينها منازعة . وأيّها صار غالباً كان الحكم له ، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلّا ما تقتضيه جبلّته ، فكان إهاب الإنسان وعاء اجتمع فيه هذه الأربع ، فالملك أو الحكيم هو القوة العاقلة ، والكلب هو القوة الغضبية ، فإنّ الكلب ليس كلباً ومذموماً للونه وصورته بل لروح معنى الكلبية والسبعية أعني الضراوة والتكلّب على الناس بالعقر والجرح ، والقوّة الغضبية موجبة لذلك ، فمن غلب فيه هذه القوّة هو الكلب حقيقة ، وإن أطلق عليه اسم الإنسان مجازاً ، والخنزير ، هو القوّة الشهوية ، والشيطان هو القوّة الوهمية ، والتقريب فيهما كما ذكر ، والنفس لا تزال محل تنازع هذه القوى وتدافعها إلى أن يغلب أحداها ، فالغضبية تدعوه إلى الظلم والإيذاء ، والعداوة والبغضاء ، والبهيمية تدعوه إلى المنكر والفواحش ، والحرص على المأكل والمناكح ، والشيطانية تهيّج غضب السبعية وشهوة البهيمية ، وتزيد [تزيّن] فعلهما ، وتغري إحداهما بالأُخرى ، والعقل شأنه أن يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها ، ويكسر سورة الشهوية بتسليط

السبعية عليها ، ويردّ كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ، ونورانيته الباهرة ، فإن غلب على الكل يجعلها مقهورة تحت سياسته غير مقدمة على فعل إلّا بإشارته وجرى الكل على المنهج الوسط ، وظهر العدل في مملكة البدن ، وإن لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال الكلب في العقر والإيذاء ، والخنزير في المنكر والفحشاء ، والشيطان في استنباط الحيل ، وتدقيق الفكر في وجوه المكر والخدع ، ليرضى الكلب ويشبع الخنزير ، فلا يزال في عبادة كلب عقور ، أو خنزير هلوع أو شيطان عنود ، فتدركه الهلاكة الأبدية ، والشقاوة السرمدية ، إن لم تغثه العناية الإلهية ، والرحمة الأزلية .

وقد يمثّل اجتماع هذه القوى في الإنسان براكب بهيمة طالب للصيد يكون معه كلب وعين من قطّاع الطريق ، فالراكب هو العقل ، والبهيمة هي الشهوة ، والكلب هو الغضب ، والعين هو القوّة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان ، فإن كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما بصدده ، وإن كانت الغلبة والحكم للبهيمة أو الكلب لهلك الراكب بذهابه معهما فيما لا يصلح له من التلال والوهاد ، واقتحامه في موارد الهلكات ، وإن كان الكل تحت نهي العين وأمره ، وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلّهم بتلبيسه عن سواء السبيل حتّى يوصلهم إلى أيدي السارقين .

وكذلك لو كانت القوى بأسرها تحت إشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والممازجة بين الكل ، وصار

الجميع كالواحد ، لأنّ المؤثّر والمدبّر حينئذ ليس إلّا قوّة واحدة تستعمل كلاً منها في المواضع اللائقة والأوقات المناسبة ، فيصدر عن كل منها ما خُلق لأجله ، على ما ينبغي من القدر والوقت والكيفية ، فتصلح النفس وقواها .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّـٰهَا﴾(١).

ولو لم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى ، ويتزايد ذلك إلى أن يؤدّي إلى انحلال الآلة والقوة لو يصير العقل مغلوباً فتهلك النفس وقواها .

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّـٰهَا﴾(٢).

(تتميم) لمّا تبيّن أنّ للنفس أربع قوى متخالفة ، ولها قوى أُخر أيضاً كما تبيّن في العلم الطبيعي ، فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل في النفس اختلاف عظيم ، والاختلاف في النفوس إنّما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة . إذ هي في بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والملكات ، وليس لها فعلية ، بل هي محض القوة ، ولذا ليس لها قوام بذاتها وإنّما تتقوّم بالبدن ، ثم بتوسّط قواها تكتسب العلوم والأخلاق ، وترتسم بالصور والأعمال إلى أن تتقوّم بها ، وتصل إلى ما خلقت لأجله .

---

(١) سورة الشمس الآية : ٩ .

(٢) سورة الشمس الآية : ١٠ .

ولمّا كانت قواها متخالفة متنازعة فما لم يغلب احداها لم تدخل النفس في عالمه الذي تخصّه فلا تزال من تنازعها معركة للآثار المختلفة والأحكام المتباينة إلى أن يغلب احداها فتظهر في النفس آثاره ويدخل في عالمه الخاص.

ولمّا كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة، والواهمة من حزب الأبالسة والغضبية من أُفق السباع، والشهوية من عالم البهائم، فبحسب غلبة واحدة منها تكون النفس امّا ملكاً أو شيطاناً أو كلباً أو خنزيراً، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهرمان العقل ظهر في مملكة النفس أحكامه وآثاره، وانتظمت أحوالها، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويختل معاشها ومعادها.

ثم المنشأ للتنازع والتجرّد والبقاء في نفس الانسانية إنّما هو قوتها العقلية لأنّ التدافع إنّما بينها وبين سائر القوى، فليس في نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة تنازع وتجاذب وإن اختلفت في غلبة ما فيها من القوى، فإنّ الغلبة في الشياطين للواهمة، وفي السباع للغضب، وفي البهائم للشهوة، وأمّا الملائكة فتنحصر قوتها بالعاقلة فليس فيها سائر القوى فلا يتحقّق فيها تدافع وتنازع. فالجامع لعوالم الكل هو الانسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة، ولذلك صار مظهراً للأسماء المتقابلة الإلهية، وقابلاً للخلافة الربّانية، وقائماً بعمارة عالمي الصورة والمعنى.

والملائكة وان كانوا مخصوصين بالجنّة الروحانية ولوازمها من

الاشراقات العلمية ، وتوابعها من اللذّات العقلية ، إلّا أنه ليس لهم جهة جسمانية ولوازمها والأجسام الفلكية وإن كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة إلّا أنّها خالية عن الطبائع المختلفة ، والكيفيات المتباينة ، وليس لها سير في المدارج المتخالفة ، والمراتب المتفاوتة ، ولا تقلّب في أطوار النقص والكمال ، ولا تحوّل في جميع التقاليب والأحوال ، بخلاف الانسان فإنه محيط بجميع المراتب المختلفة ، وسائر في الأطوار المتباينة من الجمادية والنباتية والحيوانية والملكية ، وله الترقّي عن جميع تلك المراتب بأن تتحقّق له مرتبة مشاهدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن أُفق الملائكة ، فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملكوت ، والمعجون المركّب من عالمي الأمر والخلق ، قال أمير المؤمنين عليه السلام « إنّ الله خصّ الملك بالعقل دون الشهوة والغضب ، وخصّ الحيوانات بهما دونه وشرّف الإنسان باعطاء الجميع ، فإن انقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة لوصوله إلى هذه المرتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاحم » .

بازاء كل واحدة من القوى الأربع لذّة وألم

لمّا عرفت أنّ القوى في الانسان أربع : قوّة نظرية عقلية ، وقوة وهمية خيالية ، وقوة سبعية غضبية ، وقوة بهيمية شهوية ـ فاعلم أنه

بازاء كل واحدة منها لذّة وألم ، لأنّ اللـذّة إدراك المـلائم ، والألم إدراك غير الملائم ، فلكل من الغرائز المدركة لذّة هو نيله مـقتضى طبعه الذي خلق لأجله ، وألم هو إدراكه خلاف مقتضى طبعه :

(فغريزة العقل) لمّا خلقت لمعرفة حقائق الأُمـور ، فـلذّتها فـي المعرفة والعلم ، وألمها في الجهل .

و (غريزة الغضب) لمّا خلقت للتشفّي والانتقام فلذّتها في الغلبة التي يقتضيها طبعها وألمها في عدمها .

و (غريزة الشهوة) لمّا خلقت لتحصيل الغذاء الذي به قوام البدن ، فلذّتها في نيل الغذاء ، وألمها في عدم نيله ، وهكـذا فـي غـيرها ، فاللذات والآلام أيضاً على أربعة أقسام : العقلية والخيالية والغضبية والبهيمية .

فاللذّة العقلية كالانبساط [الابتهاج] الحاصل من معرفة الأشياء الكلية وإدراك الذوات المجرّدة النورية ، والألم العقلي كالانقباض الحاصل من الجهل . واللذّة الخيالية كـالفرح الحـاصل مـن إدراك الصور والمعاني الجزئية المـلائمة ، والألم الخـيالي كـإدراك غـير الملائمة منها .

واللذّة المتعلّقة بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب والرياسات ، والألم المتعلّق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبية والعزل والمرؤسية .

واللذّة البهيمية هي المدركة من الأكل والجماع وأمثالهما ، والألم البهيمي ما يدرك من الجوع والعطش والحرّ والبرد وأشباهها .

وهذه اللذّات والآلام تصل إلى النفس وهي الملتذّة والمتألّمة حقيقة إلّا أنّ كلاً منها يصل إليها بواسطة القوّة التي تتعلّق بها . والفرق بين الكل ظاهر .

وربما يشتبه بين ما يتعلّق بالوهم والخيال وما يتعلّق بألقوة الغضبية من حيث اشتراكهما في الترتّب على التخيّل .

ويدفع الاشتباه بأنّ ما يتعلّق بالغضبية وإن توقّف على التخيّل إلّا أنّ المتأثّر بالإلتذاذ والتألّم بعد التخيّل هو الغضبية وبواسطتها تتأثّر النفس ، ففي هذا النوع من اللذّة والألم تتأثّر الغضبية ولم تتأثّر النفس .

وأمّا ما يتعلّق بالوهم والخيال فالمتأثّر بالالتذاذ والتألّم هاتان القوّتان ويصل التأثّر منهما إلى النفس من دون توسط القوة الغضبية .

وممّا يوضّح الفرق أنّ الالتذاذ والتألّم الخياليين لا يتوقّفان على وجود غلبة ومغلوبية مثلاً في الخارج ، وأمّا الغضبيان فيتوقّفان عليهما .

ثمّ أقوى اللذّات هي العقلية لكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الأحوال ، وغيرها من اللذّات الحسية انفعالية عرضية منفعلة زائلة ، وهي في مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة ، وتتزايد بتزايد القوة الحيوانية ، وتضعف بضعفها إلى أن تنتفي بالمرّة ، ويظهر قبحها عند العقل ، وأمّا العقلية فهي في البداية منتفية ، لأنّ إدراكها لا يحصل إلّا للنفوس الزكية المتحلّية بالأخلاق المرضية ، وبعد حصولها يظهر حسنها وشرفها ، وتتزايد بتزايد القوّة العقلية ، إلى أن

ينتهي إلى أقصى المراتب ، ولا يكون لها نقص ولا زوال .

والعجب ممّن ظنّ انحصار اللذّة في الحسية وجعلها غاية كمال الإنسان وسعادته القصوى . والمتشرّعون منهم قصروا اللذّات [في] الآخرة على الجنّة والحور والغلمان وأمثالها ، وآلامها على النار والعقارب والحيّات وأشباهها ، وجعلوا الوصول إلى الأُولى والخلاص عن الثانية غاية لزهدهم وعبادتهم ، وكأنّهم لم يعلموا أنّ هذه عبادة الأُجراء والعبيد [الذين] تركوا قليل المشتهيات ليصلوا إلى كثيرها . وليت شعري أنّ ذلك كيف يدلّ على الكمال الحقيقي والقرب من الله سبحانه ! ولا أدري أنّ الباكي خوفاً من النار وشوقاً إلى اللذّات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعدّ من أهل التقرّب إلى الله سبحانه ويستحقّ التعظيم ويوصف بعلو الرتبة ! وكأنّهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية ، ولا لذّة المعرفة بالله وحبّه وأُنسه ولم يسمعوا قول سيد الموحّدين [أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام] : « إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

وبالجملة لا ريب في أنّ الإنسان في اللذّة الجسمية يشارك الخنافس والديدان والهمج من الحيوان ، وإنّما يشابه الملائكة في البصيرة الباطنة والأخلاق الفاضلة ، وكيف يرتضي العاقل أن يجعل النفس الناطقة الشريفة خادمة للنفس البهيمية الخسيسة .

والعجب من هؤلاء الجماعة[1] مع هذا الاعتقاد يعظّمون من يتنزّه عن الشهوات الحيوانية ويستهين باللذّات الحسية ويتخضّعون له ويعدّون أنفسهم أشقياء بالنسبة إليه، ويذعنون أنه أقرب الناس إلى الله سبحانه وأعلى رتبة منهم يتنزّهه عن الشهوات الطبيعية، وقد اتّفق كلّهم على تنزّه مبدع الكل وتعاليه عنها مستدلّين بلزوم النقص فيه لولاه، وكل ذلك يناقض رأيهم الأول.

والسرّ فيه أنّهم وإن ذهبوا إلى هذا الرأي الفاسد إلّا أنه لمّا كانت غريزة العقل فيهم بعد موجودة، وإن كانت ضعيفة، فيرى ما هو كمال حقيقي لجوهرها كمالاً، ويحكم بنورانيّتها الذاتية، على كون ما هو فضيلة في الواقع فضيلة، وما هو رذيلة في نفس الأمر رذيلة، فيضطرهم إلى إكرام أهل التنزّه عن الشهوات، والاستهانة بالمنكبّين عليها.

وممّا يدلّ على قبح اللذّات الحيوانية أنّ أهلها يكتمونها ويخفون ارتكابها ويستحيون عن إظهارها، وإذا وصفوا بذلك تتغيّر وجوههم، كما هو ظاهر من وصف الرجل بكثرة الأكل والجماع، مع أنّ الجميل على الاطلاق يحسن إذاعته، وصاحبه يحبّ أن يظهره ويوصف به، هذا مع أنّ البديهة حاكمة بأنّ هذه اللذّات ليست لذّات حقيقية، بل هي دفع آلام حادثة للبدن[2] فإنّ ما يتخيّل لذّة عند

---

(١) المراد هم الذين حظروا اللذّات في الحسية والكلام كلّه في هذا الرأي.

(٢) الحقّ أنّ كل لذّة بدنية ونفسية إنّما هي إشباع شهوة أو غريزة تتطلّب ←

الأكل والجماع إنّما هو راحة من ألم الجوع ولذع المني ، ولذا لا يلتذّ الشبعان من الأكل ، ومعلوم أنّ الراحة من الألم ليس كمالاً وخيراً ، إذ الكمال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كمالاً وخيراً أبداً .

ايقاظ
فيه موعظة ونصيحة

لمّا عرفت أنّ الإنسان في اللذّة العقلية يشارك الملائكة ، وفي غيرها من الحسية المتعلّقة بالقوى الثلاث ، أعني السبعية والبهيمية والشيطانية ، يشارك السباع والبهائم والشياطين ؛ فاعلم أنّ من غلبت عليه إحدى اللذّات الأربع كانت مشاركته لما ينسب إليه أكثر حتّى إذا صارت الغلبة تامّة لكان هو هو .

فانظر ياحبيبي أين تضع نفسك ، فإنّ الغلبة لو كانت لقوّتك الشهوية حتّى يكون أكثر همّك إلى الشهوات الحيوانية كالأكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية ، كنت واحداً من البهائم .

⇐ الاشباع ، حتّى طلب المعارف والعلم إنّما هو لاشباع غريزة حب الاستطلاع ، إلّا أنّ طلب العلم لا يصل إلى حدّ الاشباع أبداً ، ولذا قال ﷺ : « منهومان لا يشبعان طالب علم ، وطالب مال » وليست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الأكل وأمثالهما فإنّها تصل إلى حدّ الاشباع فتكتفي .

وإن كانت لقوّتك الغضبية حتّى يكـون جـلُّ مـيلك إلى المـناصب والريـاسات الرديـة ، وإيـذاء النـاس بـالضرب والشـتم ، وبـاقي الحركات السبعية ، نزلت منزلة السباع .

وإن كانت لقوّتك الشيطانية حتّى يكون غالب سعيك في استنباط وجوه المكر والحيل للوصول إلى مقتضيات قوّتي الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلبيسات الوهمية دخلت في حزب الأبالسة .

وإن كانت لقوّتك العقلية حتّى يكون جِدّك مقصوراً على [أخذ] المعارف الإلهية واقتفاء [واقتناء] الفضائل الخلقية عرجت إلى أُفق الملائكة القدسية .

فمن كان عاقلاً غير عدو لنفسه وجب عليه أن يصرف جلّ همّه في تحصيل السعادة العلمية والعملية ، وإزالة النقائص الكامنة في نفسه ، وليقتصر على الأُمور الشهوانية ، واللذّات الجسـمانية بـقدر الضرورة . بأن يكتفي من الغذاء بما يحفظ اعتدال مـزاجـه وقـوام حياته ، ولا يكون قصده منه الالتـذاذ ، بـل سـدّ الضـرورة ودفـع الألم[1]، ولا يضيّع وقته في تحصيل أزيد من ذلك ، فإن تجاوز عنه فبقدر ما يحفظ رتبته ، ولا يوجب مهانته وذلّته .

ومن اللباس بقدر ما يستر العورة ، ويدفع الحـرّ والبـرد ، فـإن تجاوز عن ذلك فبقدر ما لا يؤدّي إلى حقارته ، ولا يوجب السقوط

---

(١) ألم الجوع ولذع المني ، ولذا لا يلتذّ الشبعان مـن الأكـل ، ومـعلوم أنّ الراحة من الألم ليس كمالاً وخيراً ، إذ الكمال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كمالاً وخيراً أبداً وقد مرّ بيانه آنفاً .

بين أقرانه وأهل طبقته ، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه ، ويبقى نسله ، وإن تعدّى فبقدر ما لا يخرجه عن السنّة ، وليحذر عن الانهماك في مقتضيات قوّتي الشهوة والغضب ، لأنه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاكة السرمدية .

فالله الله في نفوسكم معاشر الاخوان ادركوها قبل أن تغرقوا في بحار المهالك ، وتنبّهوا عن نوم الغفلة قبل أن تنسدّ عليكم السبل والمسالك ، وبادروا إلى تحصيل السعادات قبل أن تستحكم فيكم الملكات المهلكة ، والعادات المفسدة ، فإنّ إزالة الرذائل بعد استحكامها في غاية الصعوبة والمجاهدة مع أحزاب الشياطين بعد الكبر قلّما يفيد الأثر ، والغلبة على النفس الأمّارة بعد ضعف الهرم في غاية الإشكال ، إلّا أنه في أي حال لا ينبغي أن تيأسوا من روح الله ، فاجتهدوا بقدر القوّة والاستطاعة ، فإنه خير من التمادي في الباطل ، فلعلّ الله يدرككم بعظيم رحمته .

ولقد قال الشيخ[1] الفاضل أحمد بن محمد بن يعقوب بن

---

(١) هو الحكيم الأعظم والفيلسوف الأكبر « أبو علي أحمد بن محمد » بن يعقوب بن مسكويه الخازن « الرازي » الأصل والأصفهاني المسكن والخاتمة ، كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء معاصراً للشيخ أبي علي ابن سينا ، صحب الوزير المهلبي في أيام شبابه وكان من خاصته إلى أن اتّصل بصحبة « عضد الدولة » البويهي فصار من كبار ندمائه ورسله إلى نظرائه ، ثمّ اختصّ بالوزير « ابن العميد » وابنه « أبي الفتح » له مؤلّفات كثيرة بعضها في الحكمة ومنها كتاب « الفوز الأكبر » وكتاب « الفوز ⇐

مسكويه وهو الأُستاذ في علم الأخلاق ، وأقدم الإسلاميين في تدوينه : « إنّي تنبّهت عن نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة ، فتوجّهت إلى فطام نفسي عن رذائل الملكات ، وجاهدت جهاداً عظيماً حتّى وفّقني الله لاستخلاصها عمّا يهلكها ، فلا ييأس أحد من رحمة الله ، فإنّ النجاة لكل طالب مرجوة ، وأبواب الافاضة أبداً مفتوحة » فبادروا إخواني إلى تهذيب نفوسكم قبل أن يصير الرئيس مرؤساً ، والعقل مقهوراً ، فيفسد جوهركم ، وتمسخ حقيقتكم ، ويدرككم الانتكاس في الخُلق الذي هو خروج عن أُفق الإنسان ، ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين ، نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله العصمة من الخسران الذي لا نهاية له . وقد شبّه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء ، فرماها في نار مضطرمة فيحرقها ، حتّى تصير كلساً لا منفعة فيها .

⇐ الأصغر » و « جاويدان خرد » بالفارسية في الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت وبعضها في التأريخ وكـ« تجارب الأُمم » وبعضها في الأخلاق ومثل كتاب « الطهارة » المشهور ، وهو الذي قصده « المصنّف ﷺ » هنا لأنه أوّل كتاب صنّف في علم الأخلاق ، وقد مدحه أُستاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر الحجّة الأعظم الفيلسوف المحقّق الخواجة « نصير الدين الطوسي » ﷺ بأبيات . وكان ﷺ من علمائنا الإمامية قدّس الله أسرارهم وقبره (بأصفهان) على باب (درب جناد) وقد اشتهر أنّ السيد (الداماد) الذي كان من أعاظم علمائنا وأكابر حكمائنا كان كلّما اجتاز يقف على قبره ويقرأ الفاتحة (الترجمة عن الكنى والألقاب للمحدّث الشهير الحاج شيخ (عباس القمّي) ﷺ مع تصرّف يسير منّا) .

تمهيد حول المؤلّف

بقلم: الدكتور يحيى الخشّاب

اعتزازاً بما كتبه الدكتور يحيى الخشّاب المصري

عن المؤلّف، في مقدّمة تحقيقه نثبت نصّه هنا:

الطوسيّ هو أبو جعفر، نصير الدين، محمّد بن محمّد بن حسن:

وُلِدَ في جهْرُوْدِ قُم، سنة (٥٩٧هـ ١٢٠٠م).

واشتغل في صِباه بالتحصيل والتزوّد من الحكمة، وسافَرَ كثيراً ليتلقّى العلمَ على أهله، ثمّ أقام في طوس فترةً طويلةً حتّى نُسبَ إليها.

والطوسيُّ من العلماء الذين أُوتوا دِقّةَ الحسّ ورَهَفَ الشُّعور.

وكان شيعيّاً.

وقد رأى ما يجري في عاصمة الخلافة «بغداد» من ضعف الخليفة، وانصرافه إلى لذّاته مع قيانِه وجواريهِ!

ومن تناحُر رجال الخليفة، وحقد بعضهم على بعض، وسعاية بعضهم ببعضٍ، وانصرافهم جميعاً عن شؤون الدين والدنيا، وكانت مقاليدهما في أيديهم!

ورأى الفِتنة بين السنّة والشيعة تصحو، وأحياء الشيعة تحترق،

ومشاهدهم يمسّها التخريب ، والخليفةُ ووُزراؤه يرون هذا فلا يحسّون بإدْبار الدنيا عنهم وعن دولتهم ، ولا يحاولون درء الأذى عن الرعيّة ، أو دفع الشرّ عن الدين .

وخرج الطوسيّ من بلاد الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ ـ ٦٥١هـ) (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م) عَلّهُ يستريح إلى بَلَدٍ تُحتَرمُ فيه حريّةُ العقيدة ويأمن فيه الناسُ على أموالهم وعقائدهم .

فسارَ إلى قهستان ، حيث كان الإسماعيليةُ يحكمون .

فالتحقَ بخدمة علاء الدين ، محمّد بن حسن ، وتقرّب من محتشم (أي حاكم) قهستان : ناصر الدين عبدالرحيم ـ وكان حكّام قهستان يبذلون جهداً كبيراً في أنْ يزيّنوا بلاطهم بالعلماء والأُدباء .

ولكنّ الطوسيّ لم يجدْ لدى الإسماعيلية ما كان يبغي من الأمن والطُمأنينة ، فقد وَجدَ نفسه بين قومٍ يحملونه على أنْ يذهبَ في الفكر مذهبَهم ، ولم يكن يقدر على مواجهتهم بالحقّ الذي يراه .

وهكذا أحسَّ بأنه استجار من الرمضاء بالنار .

وأدرك أنّ شرّاً قريباً يوشك أنْ يقع ببلاد المسلمين ، وأُولو الأمر عنه لاهُونَ !

والأُمّة الإسلاميّة ـ التي أسلمتْ قيادها للخليفة ووزرائه ـ لا تدري من أمرها شيئاً !

وهذا التراث الإسلاميّ العظيم ـ الذي يتمثّل في عشرات الأُلوف من الكتب والرسائل في شتّى العلوم والآداب ، والذي يرعاهُ في تلكم الأيّام عشراتٌ من العلماء ـ كلّ هذا أصبحَ ولا حامٍ له ولا راعٍ

ممّن بيدهم الأمر في العالم الإسلاميّ !

وتقدّمت جحافلُ المغول ، في القرن السابع الهجري ، مُكْتسحةً العالم الإسلاميّ الشرقي قُطْراً بعد قُطْرٍ .

وكانت شُهْرة الطوسيّ ، في علم النجوم والرَصَد ، قد بلغت مسامع هُوْلاكُو ، فأرادَ أنْ يكونَ هذا العالِمُ في حاشيته ، ليستعينَ بخبرته في النجوم[1].

وكان الطوسيُّ يعرف ما سَيَحلُّ بالشرق الإسلاميّ من غارات المغول ، وكان يعلمُ أنّ البناءَ الذي أقامه العباسيّون قد دَبَّ فيه الفناءُ ، وأنّ أساسه قد تقوّضَ ، ولا سبيل إلى بقائه .

وأدرك أنّه سيدفعُ كثيراً من الشرّ والبلاء عن المسلمين لو بقيَ

---

(١) لقد استغلّ بعضُ الجهلة ـ من أعداء الحقّ والعلم ـ وجود الشيخ المحقّق الطوسيّ أسيراً لدى الجيش المغوليّ ، للتهجّم عليه وعلى طائفة الشيعة الذي ينتمي إليها ، واتّهامه ، بزعم أنّ له يداً في غزو المغول للبلاد الإسلاميّة !

لكنّ عظمة الشيخ المحقّق الطوسي ، وانجازاته العظيمة : باستنقاذ التراث الإسلامي من التلف وحفظه في خزانة الكتب في مراغة ، واستنقاذه لعشرات العلماء من أبناء الطائفة السنيّة بالذات من أنْ يُقتلوا على أيدي المغول ، وكذلك تأسيسه للرصد في مراغة ، ورعايته للعلماء والمحقّقين ، تفنّد تلك الاتّهامات الكاذبة ، والمزاعم المغرضة .

وقد دافع المنصفون بقوّة وصلابة عن الشيخ العظيم ومواقفه الموفّقة في خدمة العلم والعلماء والحضارة الإسلاميّة .

ومنهم الدكتور مصطفى جواد في مقالته التي ألقاها في الذكرى المئوية السابعة لوفاته ، والمنشورة في مجلّة دانشكدهٔ أدبيات ـ طهران .

بجانب ملك المغول الذي لا يعرف الشفقة ، وأنّ بقاءه وتعاونه معه خيرٌ من فراره منه وتركه وحده يُفني البشرَ ، ويقضي على الإسلام .

ويرى عبّاس إقبال في (تاريخه) : أنّ الطوسيّ ، علاوةً على مقامه العلميّ ، قد أدّى للحضارة الإسلاميّة عملين عظيمين :

أوّلهما : أنّه بذل جُهداً كبيراً للمحافظة على الكتب النفيسة ، والآثار ، حتّى لا يهلكها المغول ، ممّا أتاح له أن يجمع مكتبة تحوي أربعمائة مجلّد .

والثاني : أنّه استخدم نفوذه عند هولاكو ، لينقذ من الهلاك كثيرين من أهل العلم والأدب[1].

* * *

ويُعَدُّ الطوسيُّ أعلمَ أهل زمانه وهو الذي أعاد للحضارة الإسلاميّة بهاءها ، وقوّتها في أحلك الظروف السياسيّة وأقساها على القسم الشرقي من العالم الإسلاميّ ، وهو لهذا قد استحقّ لَقَبَ « أُستاذ البَشَر » .

وله ما يقرب من ثلاثة ومائة كتاب ورسالة ومقالة ، في موضوعات وفنون مختلفة ، منها خمسة وعشرون كتاباً

---

(١) تاريخ مفصّل إيران ، المجلّد الأول (ص٥٠٢) .

وانظر : المجدّدون في الإسلام ، لعبدالمتعال الصعيدي (ص٢٥٩) وتاريخ التمدّن الإسلامي لجورجي زيدان المصري (٢ / ٢٤٥) ومقالة الدكتور مصطفى جواد في مجلة دانشكدهٔ ادبيات ، السنة (٣) العدد (٤) .

بالفارسيّة[1].

وقد فصّل البيان عن كتبه الأُستاذ الدكتور محمّد معين ذاكراً أسماءها ، وهي : في الحكمة النظرية والعملية ، والهيئة والنجوم ، والرياضيّات ، والعلوم الطبيعيّة ، والعلوم الدينيّة ، والعلوم المكنونة ، وفنون الأدب ، والتاريخ ، والجغرافية ، والتصوّف[2].

ولشهرته الذائعة الصيت في الزيج والرَصَد ، طلب منكوقاآن من أخيه هولاكو أنْ يوفد إليه الطوسيَّ ، حتّى يؤسِّس مرصداً في بلاد المغول ، ولكنّ هولاكو لم يُلَبِّ رغبة أخيه وأمر بإقامة المرصد في إيران .

وفي مَراغَة أنشأ الطوسيّ مرصداً عام (٦٥٧هـ ـ ١٢٥٨م) وقد أمَدَّه هولاكو، وأباقا من بعده ، بعونٍ ماليٍّ عظيم ، منه أوقاف واسعة أتاحَتْ له أنْ يقتنيَ كثيراً من الكتب والآلات ، كما مكّنتْهُ من الاستعانة بالعُلماء المتفرّغين ، ليُتمَّ « زيج مَراغة » .

وقد ضَمَّنَ كتابه « الزيج الإيلخانيّ » خلاصة ما بذله وصحبُه في

---

(١) راجع مقالين للأُستاذين حسين خطيبي ، وذبيح الله صفا ، في مجلة دانشكدهٔ ادبيات ـ طهران ، السنة (٣) العدد (٤) ص١١ ـ ٢٩ .

(٢) مجلة دانشكدهٔ ادبيات ـ طهران ، نفس العدد ، (ص ٣٠ ـ ٤٢) .
وأوسع ما كتب عن الطوسي ، كتاب « أحوال وآثار خواجه نصير الدين الطوسي » تأليف محمّد تقي مدرّس رضوي ، وقد طبع في طهران ـ بنياد فرهنگ إيران سنة ١٣٥٤هـ، بالفارسية .

هذا السبيل[1].

* * *

ومن رسائل الطوسي [آداب المتعلّمين] التي نشرتها مؤسسة بضعة المختار لإحياء تراث أهل البيت بتحقيق وتوثيق العلّامة السيد محمد رضا الحسيني الجلالي صنة ١٤٢٣هـ.

وهي مخطوط ، باللغة العربية ، بمكتبة جامعة القاهرة ، عدد أوراقه (٣٥) ١١ × ١٨ ، كتب بالخطّ النسخ المشكول ، وتحت كثير من كلماته ترجمتها ، أو شرح لها ، بالفارسية ، نمرة (٢٦١٨٤) .

ويبدو أنّ الناسخ لم يكن يُتقن العربيّة ، فقد أكثر من الخطأ في الشكل ، وفي الهجاء !

ولعلّها كانتْ فارسيّةً ، وعُرّبَتْ[2].

والرسالة في اثني عشر فصلاً ، راجع كتاب آداب المتعلّمين .

انتهى كلام الدكتور الخشّاب

---

(١) انظر مقال الأُستاذ آيدين صابيل أُستاذ تاريخ العلوم في جامعة أنقرة ، بالفارسية ، في مجلة دانشكدهٔ ... المذكورة (ص٥٨ ـ ٧٢) .

(٢) هذا الاحتمال الذي ذكره ـ بأن يكونَ أصلُ الكتاب فارسيّاً ـ غريب جدّاً ، إذْ مجرّدُ الوقوف على مخطوطة واحدة لا يكفي لإطلاق مثل هذا الحكم ، ولا يبرّرهُ وجودُ الأغلاط ، كما لا يخفى .

خصوصاً إذا لاحظنا موافقة كثيرٍ من عباراته ، لما جاء في كتاب الزرنوجي ، الذي لا يُشَكُّ في كونه مؤلَّفاً عَربياً !

سطور عن حياة الإمام المحقّق الطوسيّ

محمّد بن محمّد بن الحسن
نصير الدين الطوسيّ الشهير بـ« الخواجه »

مولده ووالده :

ولد يوم السّبت ، الحادي عشر من جمادىٰ الأُولى ، عند طلوع الشمس ، سنة (سبع وتسعين وخمسمائة) للهجرة النبوية .

في ضواحي قم ، في موضع يسمّى جِهْرُود ، أو طُوْس .

كان والده « وجيه الدين محمّد بن الحسن » من فضلاء الطائفة في عصره ، أخذ علوم الشريعة : الفقه ، والحديث ، والكلام ، من السيّد الإمام فضل الله الراوندي ، الكاشاني .

مشايخه :

تربّى المحقّق الطوسي في كنف والده ، فأخذ منه علمي الفقه والحديث ، كما أخذ من خال أبيه الملقّب بنصير الدين المشتهر بالحديث ، ومن خاله ـ هو ـ المعروف بنور الدين ، وكان فيلسوفاً ، فأخذ منه المنطق والحكمة .

وأخذ في مختلف البلاد التي هاجر إليها من :

مُعين الدين ، سالم بن بدران ، في الفقه وأُصوله .

وأسْعد بن عبدالقاهر .

وفَريد الدين النيسابوريّ ، الحسن بن محمّد .

وكمال الدين المَوْصِليّ ، موسى بن يونس ، في الرياضيات والحكمة .

وقُطب الدين المصريّ إبراهيم بن عليّ ، في الطبّ .

ومن غيرهم .

هجرته :

وهاجر إلى نيسابور ، بوصيّة من والده ، وكانت هي الحاضرة العلمية ، التي تزخر بالعلماء والمحدّثين والأساتذة الكبار .

وهاجر إلى الريّ ، وبغداد ، والمَوْصِل ، آخذاً من أعلامها .

ثمّ عاد إلى طوس ، مسقط رأسه .

وهاجر إلى منطقة « قهستان » في غربيّ إيران سنة (٦٢٥) بعد تدهور الأوضاع في المناطق الشرقيّة والوسطى في إيران ، على أثر كثافة الهجوم المغولي وعبث عساكره ، وكان حاكم المنطقة ناصر الدين عبدالرحيم يهوى العلم ويجلّ العلماء ، فاستقرّ المحقّق الطوسيّ هناك .

وطار صيت المحقّق الطوسيّ في علوم الفلسفة والرياضيات ، فطلب زعيم الإسماعيلية من الحاكم ناصر الدين إيفاده إليه ، فارتحل المحقّق ـ على كُرْهٍ ـ إلى قلاع الإسماعيلية ، حتّى استقرّ في قلعة (أَلَمُوْت) أعظمها وأحصنها ، فظلّ هناك طوال (٢٨) سنة ، قضاها على مَضَضٍ ، كما أعرب عنه في بعض مؤلّفاته ، كخاتمة شرح الإشارات ، وقد غزر انتاجه العلمي في تلك الظروف القاسية .

وواصلت الزحوف المغولية هجومها الوحشيّ ، حتّى سقطت القلاع ومنها (ألَمُوت) سنة (٦٥٣) « فأصبح المحقّق الطوسي في قبضة هولاكو » حسب تعبير السيّد الأمين « ولم يَعُد يملك لنفسه الخيار في صحبته » .

وفي سنة (٦٥٦) لمّا بدأ الزحف المغولي على بغداد ـ عاصمة الحكم العبّاسي ـ أرسل المحقّق الطوسي كسفير يحاول إقناع الخليفة المغرور بالصلح مع الغزاة الدمويين ، فلم يتعقّل الخليفة الموقف ، ورفض الحلول المطروحة ، فاكتسحت جيوش هولاكو بغداد فسقطت في (٥ / صفر / ٦٥٦) .

وقام المحقّق الطوسيّ بدَوْر عظيم في هذه الحادثة الأليمة حيث حدّد من تعميقها ، وقصّر من أمدها ، وأوقف نزف الدماء في الحدود الممكنة ، واستنقذ العشرات من نفوس العلماء والأشراف والفضلاء ، وأنقذ الآلاف من كتب التراث التي تعرّضت للحريق والنهب ، وحافظ على الآثار العمرانية من أن تطالها يد العدوان .

وهذه هي الحقيقة المشرّفة التي اعترف بها معاصرو المحقّق والذين شاهدوا الأحداث فأرّخوها ، كابن القوطي مؤرّخ بغداد الذي كان فيها قبل الحوادث وعاشرها ، ولازم المحقّق بعدها .

إلّا أنّ شراذم من المزوّرين للتاريخ من أعداء العلم والدين والمستأجَرين الذين يخفّفون عن أسيادهم بوضع اللائمة على الآخرين ! سوّدوا صحائف كتبهم باتّهام الإمام المحقّق الطوسي لمجرّد وجوده في يد المغول ، وتحت سيطرة هولاكو بالذات ، الذي

استغلّه المحقّق ـ بفطنته ودرايته ـ للقيام بتخفيف الوطأة ، ورفع الشدّة بالقدر الممكن .

وبعد ذلك استغلّ المحقّق نفوذه في البلاط ، فتولّى إدارة شؤون الأوقاف في البلاد ، فزار بغداد ، والحلّة ، وواسط للوقوف على أوضاعها عن كَثَب .

أكاديميّته :

ورجع إلى إيران ، وأقنع المغول في إقامة أعظم أكاديميّة علمية في العالم ـ ذلك اليوم ـ تحتوي على « الرصد » والمدرسة ، والمكتبة ، فأسّسها سنة (٦٥٧) وجمع فيها مَنْ تمكّن من علماء البلاد وحتّى الفقهاء والأُدباء ، لإنعاش العلم تحت كنفه .

واحتوت في مكتبتها على ما يربو على نصف مليون كتاب ، جمعها المحقّق من التراث المبعثر ، وممّا نهبه المغول من كافّة البلاد التي غزوها من ما وراء النهر إلى بغداد .

فكانت « مراغة » التي تعرف برصدها حتّى اليوم ، مركز هذه الأكاديميّة العظيمة .

وفي سنة (٦٦٥) سافر إلى خراسان ، ورجع إلى مراغة في (٦٦٧) وسافر إلى العراق سنة (٦٧٢) فأصابه المرض في بغداد ، فتوفّي يوم الغدير (١٨ / ذي الحجّة الحرام) من تلك السنة .

ودفن في الحرم الكاظمي الشريف ، في مقابر قريش ، في الجانب الغربي من تلك البقعة المباركة ، وأوصى أن يكتب على

قبره : ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[1].

تلامذته :

تلمّذ عند المحقّق الطوسي عشرات من العلماء ، وأشهرهم :

قطب الدين الشيرازي محمود بن مسعود ، الفيلسوف المفسّر .

والعلّامة الحلّي ، الحسن بن يوسف بن المطهّر ، الفقيه المحدّث الأُصوليّ الرجالي ، الحكيم .

مؤلّفاته :

وخلّد المحقّق الطوسي ما يربو على (١٩٠) من المؤلّفات ، بين كتاب كبير ، ورسالة صغيرة ، وتعليقة ، وترجمة ، وفائدة ، ومقالة ، وجواب مسألة ، ورسالة خاصّة إلى أصحابه .

ومن أشهر مؤلّفاته المتداولة :

ـ **تجريد الاعتقاد** : أخصر متن يضمّ العقائد على رأي الشيعة الاثني عشرية ، بأتمّ شكل وأقواه ، جامعاً للأدلّة والبراهين ، ودفع التوهّمات والاعتراضات .

وله شروح عديدة واسعة من علماء الشيعة ، وأهل السنّة .

ـ **تلخيص المحصّل للفخر الرازي** : نقدٌ وتهذيب وتنقيح له .

ـ **شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا** : وهو من أهمّ شروحه ، وأعمقها .

ـ **آداب المتعلّمين** : وقد تقدّم ذكره في ص٣٣ من هذا الكتاب .

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٨ .

ـ **أخلاق ناصرى** : والمشتمل على بيان مكارم الأخلاق والسياسات المرضية على طريقة الحكماء .

ـ **أوصاف الأشراف**[1]: وهو هذا الكتاب الذي نقدّم له ، والمشتمل على بيان سير الأولياء وسلوك العرفاء .

مكانته :

وقد احتلّ المحقّق الطوسي بنبوغه وجدّه مكانةً سامية بين العلماء الذين وصفوه بـ« الإمام » « الأجل » « الأعظم » « الأفضل » « الفيلسوف » « الأكمل » « المحقّق » « نصير الحقّ والملّة والدين » « مفخر العلماء والأكابر » « سيّد الحكماء » « خاتم المحقّقين » « أفضل الحكماء والمتكلّمين » « فخر الحكماء » « سلطان العلماء » « وجيه الإسلام والمسلمين » « مولانا المعظّم » « أُستاذ البشر » « الخواجه »[2].

---

(١) مادّة شرف : الشَّرَفُ : الحَسَبُ بالآباء ، فهو شريفٌ ، والجمع أَشْرافٌ .
والشَّرفُ والمجْدُ لا يكونان إلّا بالآباء . ويقال : رجل شريفٌ ورجل ماجدٌ له آباءٌ متقدّمون في الشرف .
قال : والحَسَبُ والكَرَمُ يكونان وإن لم يكن له آباء لهم شَرَفٌ ,
والشَّرَفُ : مصدر الشَّريف من الناس . وشريف وأَشرافٌ مثل نصير وأَنْصار وشَهيد وأَشْهادٍ .
قال الجوهري : والجمع شُرَفاء وأَشْرافٌ . لسان العرب لابن منظور ط دار احياء التراث العربي بيروت .

(٢) هذه الكلمة فارسيّة ، وتُلفظ « الخاجَهْ » وتعني : السيّد ، الكبير ، صاحب العظمة .

عملنا في الكتاب :

١ ـ ضَبْط نصّه .
٢ ـ دعم مادّة الكتاب .
٣ ـ تفسير الكلمات .
٤ ـ كلمةُ شُكْرٍ .

ونقدّم شكرنا إلى سماحة العلّامة المحقّق السيد محمد حسين الحسيني الجلالي باتحافه نسخة مصوّرة للكتاب المترجم إلى العربية ممّا اتيحت لي الفرصة بتقديم وتحقيق هذا السفر العرفاني المهمّ ، تزامناً مع الغزو والاحتلال الامريكي البريطاني على العراق ـ بلد الأنبياء عليهم السلام والعتبات المقدّسة لأوصياء رسول الله المختار صلى الله عليه وآله الأئمّة الأطهار عليهم السلام في محرّم الحرام سنة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م ـ والاطاحة بالنظام البعثي الدكتاتوري .

والتاريخ يعيد نفسه حيث المحقّق الفيلسوف الخواجه نصير الدين الطوسي كان يعيش أحداث الغزو المغولي لبغداد سنة ٦٥٦هـ البخامس من صفر المظفّر .

ملاحظة تجدر الإشارة إليه :

أوّلاً : إنّ أصل تأليف هذا الكتاب الشريف (أوصاف الأشراف)

بالفارسية .

ثانياً : عند سرده للأحاديث والأدعية وغيرها لم يذكر السند .

ثالثاً : استفاد المؤلّف ﷺ من مقاطع متعدّدة من أحاديث مختلفة وجعلها في سياق حديث واحد ، فيخيّل للقارئ والباحث أنّها رواية واحدة ، في حين أنّها عدّة مقاطع استفادها المؤلّف من عدّة روايات كشاهدٍ للعنوان .

رابعاً : أتى المؤلّف ﷺ أحياناً بصدر الرواية وذيلها ، ممّا أصبحت الرواية ناقصة من الوسط دون الاشارة إلى ذلك ، حتّى صارت وكأنّها رواية كاملة ولم نجد المأخذ لها .

خامساً : نقل كثير من المؤلّفين معنى الأحاديث التي استندوا إليها ولم ينقلوها بألفاظها المثبتة في المصادر .

ولقد تغلّبنا على هذه المشكلة بإكمال الأحاديث والأدعية وغيرها ، ونقلها بشكل كامل وذكرنا المأخذ والمصادر سواء كان في أصل المتن أو التي جعلناها في الهامش لتتميم الفائدة ، وبالرغم من كل ذلك فقد أجاد مترجم الكتاب إلى العربية المرحوم الأُستاذ محمّد الخليلي فجزاه الله خير جزاء المحسنين .

وقد تمّ الفراغ بعونه تعالى من تحقيق وتوثيق هذا السفر المبارك في ليلة الأربعين لذكرى سيد شباب أهل الجنّة وسبط الرسول الأعظم وأبو الأئمّة الهداة التسعة الذين أذهب الله عنهم الرجس أهل البيت وطهّرهم تطهيراً في ليلة العشرين من صفر المظفّر سنة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .

وأسأله تعالى مزيد التوفيق من تقديم عيّنات أُخرى من الوثائق الحضارية خدمة متواضعة للإنسانية أنال به دعـاء الإمـام الحـجّة المنتظر (عجّل الله فرجه) وخاصّة المؤمنين وفّقنا الله لما فيه الخير والهدى والسداد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

السيد محمد علي الحيدري الحسني

مؤسّسة بضعة المختار عليها السلام

لإحياء تراث أهل البيت عليهم السلام

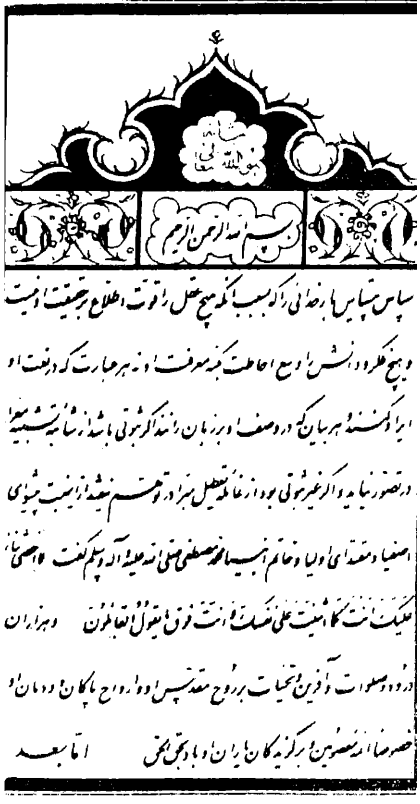

صورة الصفحة الأولى من النسخة الخطية

يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ وَأَصْحَابِهِ الْمُتَّبِعِينَ
الَّذِينَ هُمْ نُقِلُوا مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ الْمُطَهَّرَاتِ
وَالَّذِينَ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمُ الرِّجْسَ
وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا

فرغ من كتابة هذه النسخة الضعيف الراجي إلى رحمة الله الملك اللطيف
ابن محمد محمد جبر عباد الكتبي التهامي القرضاوي عفى الله عنه وعن بنيه ثم أمهم
في يوم الخميس عاشر شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٤٢ من الهجرة النبوية

***

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة الخطية
(٤٤)

مقدّمة المترجم

(الأُستاذ المرحوم محمّد الخليلي)

يفضّل الإنسان على سائر أنواع المخلوقات بعقله ، ويشرّف بعض هذا النوع على بعض بنبله ، ويمتاز هؤلاء النبلاء على أفرادهم بالعلم ، وتتفاوت درجات هؤلاء العلماء بتفاوت معارفهم ، فالعلماء إذاً هم أفضل أفراد هذا النوع الإنساني بعد الأنبياء وأجلّهم قدراً بعد الأوصياء كما أنّ أرقاهم منزلة أكثرهم نفعاً ، وأسماهم مكانة أنفعهم آثاراً ، وأحسنهم أثراً أحفظهم للعلم بتآليفه وأجمعهم له بتصانيفه ، فما تلك الكتب القيّمة التي يخلفها العالم المؤلّف بعده كباقيات صالحات للأجيال القادمة إلّا قبس من أنوار روحه المضيئة في العالم المثالي الباقي يشع على هذا العالم المادّي الفاني ليستنار به في ظلمات الجهل ويسترشد به إلى طرق الحياة السعيدة ، وما هاتيك الصفحات من كتابه إلّا مراحل حياته في عمره الثاني فهو حيّ بها ما دامت كتبه موجودة وهو باقٍ بواسطتها ما بقيت ألواحها تتلى على ممرّ الأيام والدهور وما برحت مصابيح ما حفظته من المعارف تهدي إلى طرق الرشاد والعرفان فلعمري :

ما مات من أبقى كتاباً نافعاً ... يحكيه فهو له كعمرٍ ثاني

يحيى به ما دام ينفع غيره ... علماً ويكسبه رضا الرحمٰن

ولقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال[1]: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو صدقة تجري له ، أو ولد صالح يدعو له .

ونحن لو نظرنا بعين البصيرة لما وجدنا أبقى للمرء من العلم الباقي في الكتاب ولا أنفع منه في المرجع والمآب إذ الصدقة الجارية قد تتناهبها الأيدي الأثيمة فتذهب وتذهب فائدتها بذهابها ، والولد الصالح قد تختطفه يد المنون بعده فلا تعود على والده منه عائدة .

هذا ومن البديهي أيضاً أنّ الأثر النافع للمرأ في أُخراه والعلم الذي يرجى منه له الفوز في عقباه هو ما أفاد الخلف في الدنيا والدين وجرّ إلى العمل الصالح بإصلاح الاعتقاد واليقين . وهل غير علم الدين والأخلاق من مدّخر ؟ وهل لسواهما لو أنصفنا من أثر ؟

وكم كنت على هذا الأساس أودّ لو وفّقت حسب مقدوري إلى عمل ديني أنال به الحظوة في الآخرة وأُرزق به من فضل الله ولطفه أثراً باقياً يكون لي ذخراً يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون حتّى عثرت على هذه الدرّة الثمينة التي كانت مستورة في معدنها الفارسي عن أعين العرب ، واستخرجت هذه اللؤلؤة اليتيمة التي كانت مخبوءة في بحر المعارف الإيرانية عن أنظار غوّاصي الأُمّة العربية ، ألا وهي

---

(١) بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ج٢ ص٢٣ ح ٧٠ ط دار احياء التراث ببيروت .

« رسالة محمّد » الحكيم الفيلسوف والمحقّق الطوسي عالم آل محمّد التي أسماها « أوصاف الأشراف » في سير العارفين وسلوكهم وجعلها خلاصة الفن ولبابه وهي النسخة المطبوعة في المطبعة الحكومية الألمانية في برلين بخط النسخ الجميل وبكتابة ميرزا حسين سيفي عماد الكتاب وبتصحيح حاج سيد نصر الله التقوي مطبوعة (بالزنكغراف) في سنة ١٣٠٦ شمسية .

فأحببت تقرّباً إلى الله وطلباً لمرضاته أن أتحف الأُمّة العربية بهذا التراث الجليل وأن أخدم لغة الضاد خدمة سوف تقدّرها الأيام وينتفع بها الخاص والعام .

فنقلتها إلى العربية باذلاً جهدي في إخراجها طبق الأصل دون أي تصرّف أو تغيير محافظاً على نفس مراد المؤلّف بلا أي عبث أو تحوير لما في تلك الرسالة من جلالة المباني ودقّة المعاني غير أنه لمّا كانت بعض جمل الكتاب في بعض الفصول الأخيرة لم تتحمّلها العقول السذّج ولم تقو على هضمها أفكار بعض من لم يتعمّق في الأُمور ضربنا عنها صفحاً وهي لا تزيد على أسطر معدودة وسيأتي الإيعاز إلى الحذف في محلّه .

راجياً بعملي هذا أن أنال بغيتي من الأجر عند الله والنفع للناس . فجاء بحمد الله تعالى حسب إدراكي مطابقاً للأصل كما كنت أروم خالياً من كل تصرّف كما قصدت . ولكل امرئ ما نوى .

عصمنا الله من مرديات الهوى وجعل لنا الجنّة هي المأوى . إنه لطيف مجيب .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلّف

الحمد لله الذي عجزت العقول عن الاطلاع على حقيقته ولم تسع الألباب والأفكار الإحاطة بكنه معرفته فلا عبارة تفي بنعته ولا بيان يحيط بوصفه إذ كل عبارة أو بيان يصف به الواصف نعوته تعالى لا تخلو من شائبة التشبيه إن كانت الصفات ثبوتية ولا تسلم من غائلة التعطيل إن كانت النعوت سلبية . ومن هنا قال سيّد الأنبياء وقدوة الأصفياء نبيّنا محمّد بن عبدالله ﷺ : « **لا أُحصي ثناءً عَلَيكَ ، أَنْتَ كَمَا أثنَيتَ عَلىٰ نفسكَ وأنتَ فوق ما يقُولُ القائلُونَ** »(١).

ثمّ الصلاة والتحيّة والاكرام على الروح المقدّسة النبوية والأرواح الطاهرة التابعة له لا سيّما المعصومين من ذريته وعلى أصحابه .

---

(١) ورد هذا الدعاء في باب عمل ليلة النصف من شعبان ، بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ج ٩٥ ص ٤١٢ ط دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ، وفي اقبال الأعمال للسيد ابن طاوس ص ٦٩٨ ط دار الكتب الإسلامية طهران سنة ١٣٦٧هـ ش ، ومصباح المتهجّد ص ٨٣٧ بتفاوت يسير هكذا : « لا أُحصي مدحتك ولا الثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك وفوق ما يقول القائلون ... » .

أمّا بعد : فإنّ محرّر هذه الرسالة ومقرّر هذه المقالة محمّد الطوسي يقول : لقد كنت أروم بعد تأليفي لكتابي الموسوم (أخلاق ناصري) والمشتمل على بيان مكارم الأخلاق والسياسات المرضية على طريقة الحكماء . أن أُرتّب مختصراً في بيان سير الأولياء وسلوك أهل العرفان على السالكين في الطريقة وطالبي الحقيقة مبنياً على أُسس وقوانين عقلية ونقلية ومنبّئاً عن الدقائق النظرية علمية وعملية ليكون لبّ الصناعة وخلاصة الفن . لكن الاشتغال بالمهمّات وكثرة الشواغل والمشاغل وحدوث الموانع كانت تعوقني عن إبراز ما في الضمير إلى الظاهر وإخراج ما في القوّة إلى الفعل[1]. حتّى أشار عليَّ بذلك حضرة صاحب النظام الأعظم . والي السيف والقلم . قدوة أكابر العرب والعجم شمس الحقّ والدين بهاء الإسلام والمسلمين ملك الوزراء في العالمين صاحب ديوان الملك مفخر الأشراف والأعيان . ومظهر العدل والاحسان محبّ الأولياء (محمّد بن الصاحب السعيد بهاء الدين محمّد الجويني) أعزّ الله أنصاره وضاعف اقتداره . فقدمت على اتمامه ونفذت مرامه حسب الفرصة

---

(١) بيان وتوضيح في الحكمة : وجود الشيء في الأعيان بحيث يترتّب عليه آثاره المطلوبة منه يسمّى فعلاً ويقال : إنّ وجوده بالفعل ، وامكانه قبل تحقّقه يسمّى قوّة ويقال : إنّ وجوده بالقوة ؛ مثال ذلك النطفة فإنّها ما دامت نطفة هي إنسان مثلاً بالقوّة ، فإذا تبدّلت إنساناً صارت إنساناً بالفعل له آثاره الإنسانية المطلوبة من الإنسان .

راجع المرحلة التاسعة في القوة والفعل من كتاب نهاية الحكمة ص ١٧٤ .

واقتضاء الحال معرضاً عن تلك العوارض مع وجودها مستنهضاً خواطري بعد ركودها ممتثلاً أمر ذلك الجناب المطاع دون تأخير وامتناع ووضعت مختصراً في شرح تلك الحقائق ذاكراً فيه أبواباً فتحت كل باب منها بآية من التنزيل المجيد الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[1]. مستشهداً بها وهي امّا مصرّحة بالمقصد من ذلك الباب أو مقرّبة لما فيه . وقد سمّيته (**أوصاف الأشراف**).

فإن كان مرضياً لدى الأشرف فقد بلغت الغاية المطلوبة وإلّا فقد قدّمت عذري من انشغال البال ووجود العوائق والموانع . على أنّ مكارم أخلاق الشريف ومحاسن شيم ذاته هي التي تسدل ذيل العفو والمغفرة على هفواتي . فإنّ الله الذي جعله في هذا العالم المجازي جليلاً مطاعاً . هو الذي سيجعله في العالم الحقيقي مخلّداً مؤيّداً برحمته ورأفته أنه اللطيف الخبير والسميع المجيب .

---

(١) سورة فصّلت الآية : ٤٢ .

الشروع في الكلام

لا شكّ أنّ كل من نظر إلى نفسه وأعماله وأفعاله رأى أنه يحتاج فيها إلى الغير ، وعلم أنّ المحتاج إلى الغير ناقص ، وهذا العلم بالنقص يبعث في باطنه شوقاً إلى طلب الكمال ، فيحتاج عند ذلك إلى حركة توصله إلى ما اشتاق إليه من ذلك الكمال .

وهذه الحركة تُدعى لدى أهل الطريقة بالسلوك ؛ والراغب إلى هذه الحركة يلزمه أُمور ستّة :

١ ـ بدء الحركة ممّا لا مناص منه لتسييرها وذلك بمنزلة الزاد والراحلة في الحركة الظاهرية .

٢ ـ إزالة الموانع وقطع العوائق التي تعوقه عن الحركة .

٣ ـ نفس الحركة التي يوصل بها من المبدأ إلى المقصد وهي السير والسلوك وأحوال السالك في تلك الحال .

٤ ـ الحالات التي يمرّ عليها السالك أثناء سيره وسلوكه من المبدأ حتّى يصل إلى المقصد .

٥ ـ الحالات التي تسنح للسالكين الواصلين إلى المقصد .

٦ ـ نهاية الحركة وانعدامها وانقطاع السلوك المسمّى في هذا الموضع (الفناء في التوحيد) .

وكل من هذه الأُمور تشتمل على أُمور [ستة] عدا الأمر السادس « نهاية الحركة » فإنه لا تعدّد فيه . وسنورد هذه المعاني

الستّة في ستّة أبواب وكل باب منها تشتمل على ستّة فصول إلّا الباب الأخير الذي لا يقبل التعداد والتكثير.

وليعلم أنّ الحركة كما أنّ كل جزء من أجزائها مسبوق بجزء غيره منها ومستعقب بجزء آخر إلّا الجزء الأخير الذي لا يعقبه غيره، فكذلك في هذه الأحوال المذكورة فإنّ كل حال منها تكون واسطة بين فقد السابق عليها ومقارنة اللاحق بها. فهي عند فقدان سابقها تكون مطلوبة وعند مقارنة اللاحق بها تكون مهروباً عنها.

وعلى هذا التقرير والأساس فإنّ حصول هذه الحال بالقياس إلى ما تقدّمه يدعى (كمالاً) والمقام في تلك الحال حين التوجّه إلى ما بعده يدعى (نقصاناً).

كما قال النبي ﷺ: «**مَنِ اسْتَوىٰ يَوْماهُ فَهُو مَغْبُونٌ**»[1]. وعلى هذا وبهذا المعنى قيل: «**حَسَناتُ الأَبرارِ سَيِّئاتُ الْمُقَرَّبِينَ**»[2].

وسنوضّح لك كل ذلك في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى وإذا عرفت هذه المقدّمة فلنشرع في بيان الأبواب والفصول.

---

(١) رواه الديلمي في كتابه ارشاد القلوب ج١ ص٨٧ منشورات الرضي قم المقدّسة، وكذلك الحرّ العاملي في الوسائل عن الإمام الصادق عليه السلام ج٦ ص٣٧٦ طبعة المكتبة الإسلامية بطهران.

(٢) ورد في كتاب كشف الغمّة ج٢ ص٢٥٤ عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وفي بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ج٢٥ ص٢٠٥ ط دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان.

الباب الأوّل

في مبدأ الحركة

وما لابدّ منه لتسيير الحركة

وذلك يشتمل على ستّة فصول :

١ ـ في الإيمان
٢ ـ في الثبات
٣ ـ في النيّة
٤ ـ في الصدق
٥ ـ في الانابة
٦ ـ في الإخلاص

الفصل الأوّل

في الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

الإيمان لغة التصديق وفي عرف أهل التحقيق هو التصديق الخاص أي الاعتراف بما حصل به العلم القطعي مع أمر النبي ﷺ به.

وبديهي أنّ معرفة النبي ﷺ لا تنفك عن معرفة الله القادر الحي العالم المدرك السميع البصير المريد المتكلّم مرسل الأنبياء ومنزل القرءان على محمّد ﷺ المبين لجميع الأحكام والفرائض والسنن والحلال والحرام على وجه اتّفقت الأُمّة عليها واجتمعت على صحّتها.

فالإيمان هو ما اشتمل على هذه الأُمور غير قابلة للزيادة والنقصان إذ لو نقصت لم يكن إيمان ولو زادت لكان كمال الإيمان المقارن له.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٨٢.

أمّا علامة الإيمان فهي العالم[1] بما يجب أن يعلم ، وقول ما يجب أن يقال والعمل بما يجب أن يعمل به ، والاحتراز عمّا يجب الاحتراز منه وهذا هو العمل الصالح وهو قابل للزيادة والنقصان وملازم للتصديق المذكور . لذلك ترى القرآن المجيد يقرن الإيمان بالعمل الصالح في جميع المواضع منه كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[2] إلى غيرها من الآيات .

وليعلم أنّ للإيمان مراتباً أقلّها الإيمان باللسان المشار إليه بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ ءامِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَـٰبِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾[3] كما أنّ الأمر في قوله تعالى : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[4] اشارة إلى ذلك أيضاً .

والمرتبة الثانية : التي فوقها هي الإيمان بالتقليد وهو التصديق الجازم بما يجب أن يصدق به مع امكان زواله . وهذا التصديق الجازم إذا حصل فهو مستلزم للعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا

---

(١) هكذا أورده المترجم في ترجمته للكتاب ، ولربما كلمة ـ العلم ـ بدلها أوقع للسياق .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٥٨ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٣٦ .

(٤) سورة الحجرات الآية : ١٤ .

﴿الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَـٰهَدُواْ﴾(١).

والمرتبة الثالثة التي هي أعلى منهما هي الإيمان بالغيب كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(٢).

وهذا الإيمان يكون مقارناً لبصارة باطنية تقتضي التصديق الإيماني كأنه من وراء حجاب وبهذا المعنى يكون مقروناً بالغيب.

وأكمل من هذا الإيمان إيمان من قال الله تعالى في حقّهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾(٣) إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾(٤).

وهذه المرتبة من الإيمان هي الإيمان الكامل المتصل بالإيمان اليقيني الذي سيأتي شرحه وهو نهاية مراتب الإيمان أمّا الذي لا يفيد أقلّ منه في السلوك فهو الإيمان بالتقليد والإيمان بالغيب لأنّ الإيمان باللسان ليس بإيمان في الحقيقة كما أشار إليه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٥).

ومهما حصل الاعتقاد الجازم بوجود كامل مطلق غيبي خالق مع سكون النفس كان السلوك ممكناً وكان حصوله في غاية السهولة وبأدنى سعي.

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١٥.

(٢) سورة البقرة الآية: ٣.

(٣) سورة الأنفال الآية: ٢.

(٤) سورة الأنفال الآية: ٤.

(٥) سورة يوسف الآية: ١٠٦.

الفصل الثاني

في الثبات:

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ ءامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الْأَخِرَةِ﴾[1].

الثبات حالة إن لم تقرن بالإيمان لم تتيسّر طمأنينة النفس المشروط بها طلب الكمال لأنّ كل من لم يثبت في اعتقاده وكان متزلزلاً لم يتمكّن أن يكون طالب كمال البتة.

وثبات الإيمان عبارة عن حصول الجزم بأنّ هناك كاملاً وكمالاً وما لم يحصل هذا الجزم لم يتحقّق طلب الكمال، كما أنه إذا لم يحصل الجزم في طلب الكمال ولم يكن الجازم ثابتاً في جزمه لا يمكن السلوك، والجازم الذي لا ثبات له ﴿كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَـٰطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[2] بل المتحيّر لا عزم له ولا جزم. ثمّ انّ الجازم ان لم يعيّن جهة خاصّة معيّنة لا يقع منه السير والسلوك، فإذا تحرّك كانت حركته اضطرابية تردّدية لا حاصل لها

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٧١.

ولا طائل تحتها ولا فائدة تترتّب عليها .

وعلّة هذا الثبات هي بصيرة باطن صاحبه بحقيقة معتقده ووجدان لذّة الاصابة وصيرورة هذه الحالة الباطنية ملكة لا تزول . ولهذا السبب كان صدور الأعمال الصالحة من أصحاب هذا الثبات ضرورياً دائمياً .

الفصل الثالث

في النيّة :

قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

النيّة هي القصد والقصد واسطة بين العلم والعمل إذ لو لم يعلم السالك الثابت أنّ هناك فعلاً لازم العمل لم يقصد فعله وما لم يقصد لم يحصل منه ذلك العمل ، وإنّ مبدأ السير والسلوك هو القصد ، ولابدّ فيهما أن يقصد مقصداً معيّناً ، وحيث أنّ المقصد هو حصول الكمال من الكامل المطلق وجب إذاً أن تشمل النيّة طلب القربة إلى الله ، لأنه الكامل المطلق . فإذا كان كذلك كانت النيّة وحدها أحسن من العمل وحده وعلى هذا قيل : « نيّة الْمُؤْمنِ خَيرٌ مِنْ عَمَلِهِ »(٢). إذاً النيّة تكون بمثابة الروح ، والعمل بمنزلة الجسم ، « والأعمالُ بالنيّات »(٣)، يعني أنّ حياة الجسم بالروح ـ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٦٢ .

(٢) رواه الكليني الرازي في الكافي ج ٢ ص ٨٤ باب النيّة عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله ط دار صعب بيروت .

(٣) الخبر المروي عن النبي صلى الله عليه وآله إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لامرئ ما نوى ، تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج ١ ص ٨٣ ط بيروت دار صعب .

نَوىٰ ـ[1].

« وَمَنْ كـانَ هِجْرَتُهُ إِلىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُـولِهِ وَمَنْ كـانَتْ هِجْرَتُهُ إِلىٰ الدُّنيا يُصِيبُهـا أَوِ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهـا فَـهِجْرَتُهُ إِلىٰ مـا هـاجَرَ إِلَيْهِ » . وبديهي أنّ العمل الخـيري المـقرون بـالنيّة المقرونة بطلب القربة إلى الله تـعالى لابـدّ وأن تكـون مـفضية إلى حصول الكمال بحسب ذلك العمل . كما قال الله تعالى : ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[2].

---

(١) عن النبي ﷺ : « إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكلِّ امرئ ما نوى ، فـمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . حديث متّفق عليه ، بتفاوت يسير ، راجع البحار للـعلّامة المـجلسي ج ٦٧ ص ٢١١ ، والجامع الصحيح للبخاري ج ٤ ص ٢٢٧ برقم ٦٦٨٩ ، وج ٢ ص ٢١٦ برقم ٢٥٢٩ ط بيروت دار احياء التراث العربي .

(٢) سورة النساء الآية : ١١٤ .

الفصل الرابع

في الصدق:

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1].

الصدق لغة هو الاستقامة في القول والاستقامة في العمل بالوعد وهنا يراد منه الصدق في النيّة والعزم والقول والوفاء بما قاله اللسان أو وعد به الإنسان بل وفي كل الحالات والأوضاع. والصديق من صدق في كل ما ذكر مع كون الصدق المذكور له ملكة طبع عليها بحيث لا يمكنه مخالفتها عيناً ولا أثراً.

وقد قال العلماء: إنّ كل من كان كذلك صدقت حتى أحلامه ومناماته. وقال الله تعالى في حقّهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[2] وقد ورد ذكر الصدّيقين مع النبيين والشهداء في سلك واحد في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[3] كما

---

(١) سورة التوبة الآية: ١١٩.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٢٣.

(٣) سورة النساء الآية: ٦٩.

وصف تعالى أنبياءه العظام كإبراهيم وإدريس عليهم السلام بوصف الصدّيقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾[1] وغيرهم بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾[2].

وحيث أنّ طريق الصدق أقرب طريق إلى المقصد فإنّ من سلك الطريق المستقيم كان أقرب آمل بالوصول إلى المقصد المطلوب.

---

(١) سورة مريم الآية: ٥٦.

(٢) سورة مريم الآية: ٥٠.

الفصل الخامس

في الانابة :

قال الله تعالى : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾(١).

الإنابة هي الرجوع إلى الله والإقبال عليه وذلك بأُمور ثلاثة :

أحدها : في الباطن وهو دوام التوجّه إلى ناحية الله تعالى وطلب التقرّب إليه في كل فكر وعزم ، قال تعالى : ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾(٢).

ثانيهما : في القول وهو أن يلهج بذكر الله وذكر نعمه وذكر المقرّبين إليه ، قال تعالى : ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾(٣).

ثالثها : في الأعمال الظاهرة وذلك بالمواظبة على الطاعات والعبادات المقرونة بنيّة القربة إلى الله تعالى كالفرائض والنوافل والوقوف في مواقف كبار الدين .

وبذل الصدقات والإحسان إلى الخلق بإيصال أسباب النفع إليهم ودفع الضرر عنهم وملازمة الصدق في المعاملات وإعطاء المرء من نفسه وأهله النصف إلى غيرها .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٥٤ .

(٢) سورة ق الآية : ٣٣ .

(٣) سورة غافر الآية : ١٣ .

وبالجملة هو الالتزام بالأحكام الشرعية تقرّباً إلى الله تعالى وطلباً لمرضاته فإنه تعالى قال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1].

(١) سورة ق الآية: ٣٠ ـ ٣٥.

الفصل السادس

في الإخلاص:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1].

الإخلاص لغة تطهير الشيء من كل ما هو خارج عنه غير ممزوج به. وهنا يراد به أن يكون المرء في كل ما يقول ويعمل خاصاً خالصاً لله متقرّباً به إليه وأن لا يمازجه أي غرض دنيوي أو أُخروي البتة، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[2] ويقابله ما خالطه غرض آخر كحبّ الجاه والمال أو حسن الذكرى أو الطمع في ثواب الآخرة أو في نجاة من عذاب المحضر فإنّ كل ذلك شرك لا يجتمع مع الإخلاص الحقيقي لله تعالى.

والشرك نوعان، جلي وخفي، أمّا الجلي فهو عبارة عن عبادة الأوثان وما عداه شرك خفي. قال ﷺ: «نِيَّةُ الشِّرْكِ فِي أُمَّتِي أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ عَلَىٰ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ فِي اللَّيْلَةِ

---

(١) سورة البيّنة الآية: ٥.

(٢) سورة الزمر الآية: ٣.

الظَّلْمـاءِ »[1].

أمّا طلب الكمال فإنّ هذا الشرك الخفي أعظم مانع له في سلوكه، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدا﴾[2].

فإذا زال المانع وهو الشرك الخفي سهل السلوك والوصـول إلى المقصد. من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه وبالله العصمة.

---

(١) ورد في كتاب عوالي اللآلي ج٢ ص٧٤، وفي مسـتدرك الوسـائل ج١ ص١١٣ بتفاوت يسير.

(٢) سورة الكهف الآية: ١١٠.

الباب الثاني

في إزالة العوائق

وقطع الموانع من السير والسلوك

وهو ستّة فصول:

١ ـ في التوبة
٢ ـ في الزهد
٣ ـ في الفقر
٤ ـ في الرياضة
٥ ـ في المحاسبة والمراقبة
٦ ـ في التقوى

الفصل الأول

في التوبة:

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

التوبة لغة هي الرجوع عن الذنب ولأجل أن نعرف الذنب ما هو حتى يرجع عنه يلزمنا أن نعرف ابتداءً: أنّ أفعال العباد خمسة أقسام:

١ ـ الفعل الذي يجب أن يعمل به ولا ينبغي تركه.

٢ ـ الفعل الذي يجب أن لا يعمل به ولا ينبغي أن يعمل به.

٣ ـ الفعل الذي يكون فعله خير من تركه.

٤ ـ الفعل الذي يكون تركه خير من فعله.

٥ ـ الفعل الذي يكون فعله وتركه على السواء.

والذنب هو ترك القسم الأول أو العمل بالقسم الثاني.

والتوبة في هذين القسمين تجب على كل عاقل. ولسنا نريد هاهنا من التوبة ما تختصّ بأقوال الجوارح وأفعالها فقط بل نريد

---

(١) سورة النور الآية: ٣١.

منها التوبة عن الذنوب التي تتعلّق بـالأفكار والأقـوال والأفـعال التابعة لقدرة العقلاء وإرادتهم .

أمّا ترك الفعل في القسم الثالث أو فعله في القسم الرابع فذلك هو المسمّى « ترك الأولى » وترك الأولى هو ممّا لا ينبغي صدوره من المعصومين وتوبتهم هي عن ترك الأولى فقط .

أمّا أهل السلوك فإنّهم يعدّون الالتفات إلى غير الله الذي هو غاية القصد عندهم ذنباً وتجب التوبة منهم عنه .

إذاً فالتوبة ثلاثة أنواع : عام وخاص وأخصّ . فتوبة العباد عام ، وتوبة المعصومين خاص وتوبة أهل السلوك أخصّ .

أي توبة العصاة من الأُمّة هي من النوع الأول .

وتوبة آدم وغيره من الأنبياء هي من النوع الثاني .

وتوبة نبيّنا ﷺ حيث يقول : « **وَإِنَّهُ لَيُغَانُ عَـلَىٰ قَـلْبِي وَإِنِّـي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً** »[1]، هي من النوع الثالث .

---

(١) الخبر ورد عن ابن أبي جمهور في درر اللآلي : عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « انّه ليغان على قلبي ، وانّي لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرّة » . وروى : « في كل يوم مائة مرّة » . المصدر مستدرك الوسائل للنوري ج ٥ ص ٣٢٠ ط بيروت مؤسسة آل البيت عليهم السلام . وكذلك ورد عن القطب الراوندي في لبّ اللباب بنفس المضمون المستدرك ح ٥ ص ٣٧٥ .

قال الطريحي : في الخبر انّه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرّة .

قال البيضاوي في شرح المصابيح : الغين لغة في الغيم وغان على قلبي كذا ⇐

أمّا التوبة العامّة فهي موقوفة على شرطين :

الأول : أن يعلم التائب بأقسام الأفعال ليعرف أي فعل منها يوصله إلى الكمال ، والكمال يتعدّد بحسب الأشخاص ، فكمال بعض هو النجاة من العذاب ، وكمال بعض هو حصول الثواب ، وآخرون رضا الله تعالى والتقرّب إليه . كما عليه أن يعلم بالأفعال الموصلة إلى النقصان وهو يقابل الكمال ويتعدّد بحسب الأشخاص أيضاً لأنّ هناك امّا استحقاق للعقاب وأمّا الحرمان من الثواب وأمّا سخط الخالق والبعد عنه الذي تكون اللعنة عبارة عنه .

الثاني : أن يقف على فائدة حصول كمال رضا الله تعالى وعلى خلل حصول نقصان سخطه .

⇐ أي غطّاه .

قال أبو عبيدة في معنى الحديث : أي يتغشّى قلبي ما يلبسه ، وقد بلغنا عن الاصمعي أنه سئل عن هذا الحديث فقال للسائل : عن قلب من يروى هذا ؟ فقال : عن قلب النبي ﷺ فقال لو كان عن غير النبي ﷺ لكنت أُفسّره لك ، قال القاضي : ولله درّ الاصمعي في انتهاجه منهج الأدب إلى أن قال : نحن بالنور المقتبس من مشكاتهم نذهب ونقول : لمّا كان قلب النبي ﷺ أتمّ القلوب صفاء وأكثرها ضياء وأعرفها عِرفاً وكان ﷺ مبيّناً مع ذلك لشرائع الملّة وتأسيس السنّة ميسّراً غير معسّر لم يكن له بدّ من النزول إلى الرخص والالتفات إلى حظوظ النفس مع ما كان ممتنعاً به من أحكام البشرية فكأنه إذا تعاطى شيئاً من ذلك أسرعت كدورة ما إلى القلب لكمال رقّته وفرط نورانيته فإنّ الشيء كلّما كان أصفى كانت الكدورة عليه أبين وأهدى ، وكان ﷺ إذا أحسّ بشيء من ذلك عدّه على النفس ذنباً فأستغفر منه .

فكل عاقل حصل له هذان الشرطان لا يذنب البتة ، وإن ارتكب تداركه بالتوبة ، والتوبة تشتمل على أُمور ثلاثة :

١ ـ توبة عن الماضي .

٢ ـ توبة عن الحاضر .

٣ ـ توبة عن المستقبل .

أمّا التوبة بالقياس إلى الماضي فهي قسمان :

الأول : الندم على ما اقترفه المذنب في الماضي والتأسّف على صدوره منه تأسّفاً بالغاً بحيث يستلزم القسم الآخر . وعلى هذا قيل : الندم توبة .

الثاني : تدارك ما فات منه . والتدارك يقاس إلى ثلاثة فهو امّا أن يكون تداركاً لمخالفة أوامر الله ونواهيه . وإمّا أن يكون مع النفس حيث جعلها معرضة للنقصان وسخط الله تعالى .

وإمّا أن يكون مع الغير بالحاق الضرر به قولاً أو فعلاً وما لم يوصل الغير إلى حقّه لم يتحقّق التدارك . أمّا إيصال الغير إلى حقّه في القول فيكون بالاعتذار إليه أو الانقياد إلى مكافأته وبالجملة بتحصيل رضاه بكل صورة ، وفي الفعل يكون بإيصال الحقّ إلى صاحبه عيناً أو بردّ عوضه إن كان حياً موجوداً وإلّا فإلى القائم مقامه مع الانقياد إلى مكافأته أو من يقوم مقامه وأن يتحمّل كل مشقّة وعذاب رتّب له على ذلك الذنب .

أمّا إذا كان ذلك الغير مقتولاً فعليه بتحصيل رضا الأولياء لأنّ تحصيل رضاه محال .

فإذا حصلت هذه الأُمور مع حصول الشرائط الأُخر للتوبة فإنّ رحمة الله مأمولة في الآخرة لخلاصه ونجاته .

أمّا حقّ النفس والتفريط فيه فإنه يتدارك بتحمّل العذاب الدنيوي أو الديني الذي يجب تلافيه ثم تلافي ما فاتها بالاطاعة لله تعالى وامتثال أوامره ونواهيه .

وأمّا التفريط في جنب الله فتداركه بالتضرّع إليه والبكاء والرجوع إلى الحضيرة القدسية والالتزام بالعبادة والرياضة بعد تحصيل رضا المجني عليه وأداء حقّ النفس .

فإذا حصل كل ذلك فالرجاء بالمغفرة وقبول التوبة مأمول إن شاء الله .

وأمّا التوبة بالقياس إلى الحاضر فهي قسمان أيضاً :

الأول : ترك الذنب الذي هو مباشرة في الحال قربة إلى الله تعالى .

الثاني : تأمين من تعدّى عليه المذنب بذنبه وتدارك النقصان اللاحق به .

أمّا التوبة بالقياس إلى المستقبل فهي أيضاً قسمان :

الأول : عقد النية والعزم والجزم على عدم العودة إلى ذلك الذنب وإن أدّى إلى الحرق أو القتل وأن لا يرضى بالعودة إلى مثله اختياراً ولا اضطراراً مهما كلّفه الأمر .

الثاني : أن يعزم على الثبات فيما عاهد نفسه عليه من عدم العودة وإذا لم يطمئن من نفسه فليلزمها بما يؤمنه ويوثّقه من ثباته كنذر أو كفّارة أو ما أشبههما . أمّا إذا كان متردّداً في العودة ومتزلزلاً في ثباته

أو كان في نيّته مجال لامكان العودة فلا ثبات هناك البتة .

وممّا لا يخفى أنّ نيّة التوبة لابدّ وأن تكون مشفوعة بالقربة إلى الله تعالى في امتثال أوامره ليدخل بذلك في جماعة التوّابين الذين ورد في شأنهم : « التّائِبُ مِنَ الذّنبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهْ »(١).

هذه شروط التوبة العامّة من الذنوب والمعاصي وقد قال الله تعالى في حقّ هؤلاء : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾(٢). وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾(٣).

أمّا التوبة الخاصّة التي هي عبارة عن ترك الأولى فشرائطها معلومة ممّا قدّمناه . ولقد قال تعالى فيها : ﴿لَّقَدْ تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَـٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾(٤).

أمّا الأخص منها فهي عن أمرين :

١ ـ عن التفات السالك إلى الكمال نحو غير مطلوبه كما قيل ـ اليمين والشمال مضلّتان ـ.

٢ ـ عن العودة إلى المرتبة التي كان عليه أن يترقّى عنها

---

(١) نقله العلّامة المجلسي ﷺ في البحار ج٦ ص٢١ الحديث٦ ط بيروت دار احياء التراث العربي .

(٢) سورة التحريم الآية : ٨.

(٣) سورة النساء الآية : ١٧ .

(٤) سورة التوبة الآية : ١١٧ .

بالالتفات إليها على وجه الرضا بالإقامة فيها .

وهذا عند أهل الطريقة ذنب يجب أن يتاب عنه ولهذا قيل : « حَسَنَاتُ الأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ »[1]، ولأجل التطهير من هذا الذنب يجب عليهم التوبة والاستغفار وترك الإصرار والندم على تلك الرقدات الماضية مع التضرّع إلى الله تعالى وتقدّس ، من تاب وَأَخْلَصَ سِرَّهُ لِلّهِ فَاللهُ لَهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

---

(١) كشف الغمّة ج ٢ ص ٢٥٤ عن أبي الحسن الإمام الكاظم عليه السلام ، وفي بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ج ٢٥ ص ٢٠٥ وقد تقدّم في ص ٥٢ .

الفصل الثاني

في الزهد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1].

الزهد عدم الرغبة، والزاهد الراغب عن كل ما يتعلّق بالدنيا من مأكل أو مشرب أو ملبس أو مسكن أو شهوة أو لذّة أو مال أو جاه أو ذِكر في الدنيا أو تقرّب من الملوك أو امرةٍ نافذة بل وعن تحصيل كل مطلب ينفصل عنه بالموت، لا عن عجز منه ولا عن طريق جهل ولا لغرض له أو عوض يرجع إليه.

فمن كان متّصفاً بهذه الصفات دعي زاهداً.

أمّا الزاهد الحقيقي فهو الزاهد عن كل ما ذكرناه لكن لا عن طمع نجاة من عقاب نارٍ أو طلب ثواب جنّةٍ بل هو مجرد صرف النفس عن كل ذلك بعد علمه بتبعاتها وفوائدها وما يترتّب عليها من قبح حتى تكون له ملكة لا يشوبها طمع أو أمل أو غرض دنيوي أو أُخروي، وأن تحصل له هذه الملكة بزجر النفس عمّا تشتهيه

---

(١) سورة طه الآية: ١٣١.

والرياضة على الأُمور الشاقّة حتّى يكون هذا الترك له ملكة راسخة .

وقد ورد في حكايات بعض الزهّاد : أنه كان يبيع رؤوس الغنم المطبوخة والفالوذج مدّة ثلاثين سنة ولم يذق منها أبداً طيلة تلك المدّة ، ولمّا سئل عن هذه الرياضة وعلّة هذا العمل قال : لمّا عرفت نفسي يوماً ما تميل إلى تناول هـذين الطـعامين أرغـمتها بـاتّخاذ مباشرتهما مع كفّ النفس عن الوصـول إليـهما كـي لا تـطمع فـي مشتهياتها مع تيسّرهما وشدّة الشوق إليهما .

أمّا مثل من يزهد في الدنيا طمعاً في النجاة من العقاب أو فـي كسب الثواب في الآخرة ، فذلك كمن لا يأكل طعاماً في نهاره مع وفور الحاجة إليه طمعاً في ضيافة متوقّعة في ليله ليأكل فيها كثيراً ذلك لخسّةٍ في طبعه أو قلّة همّة جبل عليها ، أو كتاجر يأخذ ويعطي ويبيع ويشتري طلباً للربح لا غير .

أمّا منفعة الزهد في سلوك طريق الحقيقة فهي دفع الشواغل عن الطريق فقط لكيلا يشتغل السالك بـها عـن الوصـول إلى المـقصد المطلوب .

الفصل الثالث

في الفقر:

قال الله تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾[1].

الفقير هو الذي لا يجد مالاً أو انه يجد ما لا يكفيه .

أمّا هنا فالمراد بالفقير هو من لا رغبة له في المال وفي كل المقتضيات الدنيوية ، وإذا حصل على مال لا يهتمّ بحفظه لا لعجز فيه أو جهل أو غفلة أو زجرة ولا لطمع في صرفه على ما تشتهيه نفسه أو لتحصيل جاه أو تخليد ذكر خير دنيوي ولا لإيثار سخاء ولا لخوف عقاب أو طلب ثواب في الآخرة ، بل لقلّة مبالاة به والتفات إليه اللذان هما من لوازم الاقبال على السير والسلوك في طريق الحقيقة والانشغال بمراقبة الجهة القدسية الإلهية لكيلا يحجب السالك بها عن الله تعالى .

وهذا الفقر في الحقيقة شعبة من الزهد .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٩١.

قال النبيُّ ﷺ : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ » قالُوا بَلىٰ[1]، قال ﷺ : « كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ أَغْبَرَ أَشْعَثَ ذي طِمرَيْنِ لاَ يُؤبه لَوْ أَقسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ » .

ولمّا قال الله لنبيّه ﷺ[2]: « لَوْ شئتَ أَنْ أَجعَلَ لَكَ بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَباً . قال ﷺ : لا . بَلْ أَجُوعُ يَوْماً فَأَسْأَلَكَ وَأَشْبَعُ يَوْماً فَأَشْكُرَكَ » .

---

(١) ذكره العلّامة الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري في كتابه مكارم الأخلاق الباب الثاني عشر الفصل الخامس ص٤٧١ الطبعة السادسة لمؤسسة الأعلمي سنة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٤م بيروت لبنان . هكذا :
من وصايا رسول الله ﷺ لأبي ذرّ الغفاري ﷺ ، ياأبا ذرّ : ألا أُخبرك بأهل الجنّة ؟ قلت : بلى يارسول الله قال ﷺ كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه .
وهكذا نقله الشيخ الطوسي في الأمالي ص٥٣٧ (١٩) مجلس يوم الجمعة الرابع من المحرّم ، وفي أعلام الدين ص٢٠٣ باب وصية النبي ﷺ لأبي ذرّ بنفس المضمون ، وفي مجموعة ورّام ، ٢ / ٦٦ الجزء الثاني ص١ بنفس المضمون، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ ... في شرح نهج البلاغة ج ٢ ص١٨٣ قال ﷺ : « ألا أدلُّكم على أهل الجنَّة ؟ كلُّ ضعيف مستضعف لو أقسَمَ على الله لأبرَّه ... » ورواه البخاري في الجامع الصحيح برقم ٦٦٥٧.

(٢) أورده العلّامة المجلسي بعدّة أسانيد وبتفاوت يسير منها : عن أبي عبدالله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : عرضت عليّ بطحاء مكّة ذهباً ، فقلت : ياربّ لا ، ولكن أشبع يوماً ، وأجوع يوماً ، فإذا شبعت حمدتك وشكرتك ، وإذا جعت دعوتك وذكرتك . بحار الأنوار ج١٦ ط بيروت دار إحياء التراث العربي الحديث رقم ١١٨ ص٢٧٩ و١٣٠ ص٢٨٣ و١٢ ص٢٢٠ وراجع أوّل ص٢٣٨ من البحار .
وكذلك في الفروع من الكافي للكليني الرازي ج٨ ص١٣١ الحديث ١٠٢ طبعة دار صعب الطبعة الثالثة سنة ١٤٠١هـ بيروت .

الفصل الرابع

في الرياضة:

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١).

الرياضة لغة ترويض الأنعام بمنعها عمّا تقصده من الحركات غير المطلوبة حتى تكون منقادة ويصير ذلك الانقياد ملكة تجبل عليها في تلك المطالب التي يريدها صاحبها.

أمّا المراد منها هنا، فهو منع النفس الحيوانية من الانقياد للقوّة الشهوية والقوّة الغضبية وما يتعلّق بهما، وردع النفس الناطقة عن المطاوعة للقوة الحيوانية ورذائل الأخلاق والأعمال الرديئة كالحرص في جمع المال وتحصيل الجاه وتوابعهما من حيلة ومكر وخديعة وغيبة وتعصّب وغضب وحقد وحسد وفجور وانهماك في الشرور، وغيٍّ وما يحدث منها، وجعل الطاعة والعمل ملكة راسخة ثابتة على وجه يوصلانه إلى الكمال الممكن له.

فالنفس التابعة للقوة الشهوية تدعى (البهيمية). والتابعة للقوّة

---

(١) سورة النازعات الآية: ٤٠ ـ ٤١.

الغضبية تسمّى (السبعية).

والتي تكون رذائل الأخلاق لها ملكة يقال لها (الشيطانية) وقد سمّيت هذه النفس المتّصفة بهذه الصفات في القرءان المجيد بـ(النفس الأمّارة) أي الأمّارة بالسوء إذا كانت هذه الرذائل فيها ثابتة، أمّا إذا لم تكن ثابتة أو أنها تميل مرّة إلى الشرّ وأُخرى إلى الخير وإذا مالت إلى الخير ندمت على ميلها إلى الشرّ ولامت نفسها سمّيت (النفس اللوامة). أمّا النفس التي تنقاد إلى العقل ويكون طلب الخير لها ملكة فإنّها تدعى بـ(النفس المطمئنة)[1].

والغرض من الرياضة أُمور ثلاثة:

١ ـ رفع الموانع والشواغل الظاهرة والباطنة عن الوصول إلى الحقّ.

٢ ـ جعل النفس الحيوانية مطيعة للعقل العملي بحيث يكون ذلك عوناً لها على الوصول إلى الكمال.

٣ ـ جعل الثبات على ما يهيىء النفس ويعدها لقبول الفيض الإلٰهي ملكة لها ليتسنّى لها الوصول إلى الكمال الممكن لها.

---

(١) راجع المقدّمة ص١٢ ـ النفس وأسماؤها وقواها الأربع ـ.

الفصل الخامس

في المحاسبة والمراقبة :

قال الله تعالى : ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ...﴾[1].

المحاسبة لغة هي أن تحاسب الغير ، والمراقبة هي التحفّظ والتدقيق في أفعاله وأعماله .

ويراد من المحاسبة هنا ، أن يحاسب المرء نفسه على الطاعات والمعاصي ليرى أيّهما أكثر فإن كانت الطاعات أكثر فلينظر إلى هذا الفضل ويقيسه بالنسبة إلى نعم الله تعالى عليه والكرامات التي تفضل عليه بها ، وذلك بأن يتأمّل أولاً في وجوده والحكمة في خلق أعضائه التي ذكرها علماء التشريح في كتبهم حسب مداركهم ، وهو غيض من فيض وقطرة من بحر ما أودع الخالق فيها من الحكم ، ثمّ ينظر إلى ما في نفسه من فوائد القوى النباتية والحيوانية المودعة فيها له ، وما في نفسه هو من دقائق الصنع ، مثل إدراكها للعلوم والمعقولات والمحسوسات بذاتها ، وتدبيرها للقوى في الأعضاء

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٨٤ .

بآلاتها . ثمّ ينظر ويتأمّل في الرزق الذي قدّره له منذ خلقته وفي الأسباب التي أعدّها لتربيته ونموه من العلويات والسفليات . فإنه إذا قاس فضل طاعاته بهذه النعم وغيرها من نعم الله التي لا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1] وقف على تقصيره في أداء الواجب في جميع الأحوال .

أمّا إذا تساوت لديه الطاعات والمعاصي فليعلم بعد المحاسبة أنه لم يقم بشيء من واجبه بإزاء تلك النعم والآلاء الكثيرة ويتّضح لديه تقصيره البتة .

أمّا إذا رجحت المعاصي على الطاعات فويل له ثم ويل له .

أمّا طالب الكمال فإنه إذا حاسب نفسه هذه المحاسبة لم تصدر منه سوى الطاعات ومع ذلك فإنه يرى نفسه مقصّراً ، ولذا قيل : « حاسِبُوا أَنْفُسَكُم قَبْل أَنْ تُحاسَبُوا »[2] ـ ومن لم يحاسب نفسه بل كان متمادياً في العصيان فإنه سيحاسب غداً بمقتضى قوله تعالى : ﴿إِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[3] فيقع عندئذ في العذاب الأليم والخسران العظيم وحينئذ ﴿لَا يُقْبَلُ مِنْهَا

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٤.

(٢) في الخبر المروي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : ألا حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ...
بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ج٦٧ ص٦٤ ح٤ ط بيروت دار إحياء التراث العربي .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٤٧.

عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ﴾[1] أعاذنا الله من ذلك.

أمّا المراد بالمراقبة فهو أن يحافظ المرء على ظاهره وباطنه كيلا يصدر ما يبطل حسناته بمعنى أنه يلاحظ أحواله على الدوام حتى لا يقدم على معصية في السرّ والعلن وأن لا يشغله عن سلوك طريق الحق شاغل، قوياً كان أو ضعيفاً وأن يجعل ذلك نصب عينيه على الدوام ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[2] حتى يوفّق المحاسب المراقب إلى مرتبة الوصول إلى المطلب والمقصد. « والله يوفّق من يشاء من عباده انّه هو اللطيف الخبير ».

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٢٣.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٣٥.

الفصل السادس

في التقوى:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]..

التقوى هي التجنّب عن المعاصي والابتعاد عنها خوفاً من سخط الله تعالى كالمريض الذي يحتمي من المضرّات لمرضه أو المزيدات فيه طلباً للصحة والنجاح في العلاج، وكذلك الناقص الذي يطلب الكمال يجب عليه أن يحترز عن كل ما ينافي ذلك الكمال أو يكون مانعاً له عن الوصول إليه أو أن يشغل السالك عن سيره في طريق طلبه حتى يكون المقتضي للوصول أو ما يعاونه في سلوكه مفيداً مؤثّراً. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

والتقوى بالحقيقة تتركّب من ثلاثة أشياء:

١ ـ الخوف.

٢ ـ التحاشي من المعاصي.

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١٣.

(٢) سورة الطلاق الآية: ٢ ـ ٣.

٣ ـ طلب القربة إلى الله .

وسنذكر تفصيل ذلك في غير موضع من هذه الرسالة .

وقد كثر ذكر التقوى والثناء على المتّقين في التنزيل العظيم والأحاديث الصحيحة ممّا لا يسعه هذا المختصر ، وغاية كل الغايات هي محبّة الله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران الآية : ٧٦.

الباب الثالث

في السير والسلوك في طلب الكمال

وبيان أحوال السالك

وذلك في ستّة فصول:

١ ـ في الخلوة
٢ ـ في التفكير
٣ ـ في الخوف
٤ ـ في الرجاء
٥ ـ في الصبر
٦ ـ في الشكر

الفصل الأول

في الخلوة:

قال الله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[1].

لقد تقرّر في العلوم الحقيقية: أنّ الذوات المستعدّة لقبول الفيض الإلٰهي مع وجود الاستعداد فيها وعدم الموانع من حصوله فإنها لا تحرم منه البتة، وانّ الفيض الإلٰهي لا يمكن حصوله لأحد إلّا بعد العلم بأمرين:

أولاً: العلم بجواز ذلك الفيض مع اليقين به وعدم الشكّ فيه.

ثانياً: العلم بأنّ هذا الفيض في أي ذات وجد كان مقتضياً لكمالها.

وهذان العلمان لابدّ وأن يكونا مقارنين لاستعداده لقبول ذلك الفيض في كل حال.

فإذا عرفت هذه المقدّمة وقدّرتها حق قدرها نقول: يجب على طالب الكمال بعد حصول الاستعداد فيه رفع الموانع عن طريقه،

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٧٠.

ومعظم تلك الموانع شواغل مجازية لا حقيقية ، تشغل النفس بالالتفات إلى غير الله ، وتمنعها عن الاقبال الكلّي على الوصول إلى المقصد الحقيقي .

وشواغل الحواس ؛ ظاهرة ، وباطنة ، وغيرها من القوى الحيوانية ، والأفكار المجازية .

أمّا الحواس الظاهرة فاشغالها يكون ؛ امّا برؤية الصور المرغّبة لها ، أو سماع الأصوات الملائمة المنعشة ، أو استذواق الطعوم الشهية ، أو شمّ الروائح الطيّبة ، أو لمس الملموسات المبهجة إلى غير ذلك ممّا تدركها الحواس الظاهرة .

أمّا الحواس الباطنة فإنّها تشغل النفس ؛ امّا بتخيّل الصور والحالات التي تلفت الذهن إليها ، أو بتوهّم المحبّة والبغض ، أو بتعظيم مسرّة ، أو بتحقير مضرّة ، أو بتفكّر في انتظام مشي وعدم انتظامه ، أو بتذكّر حال ماضي ، أو بعمق الفكر في طلب حصول أُمور مرغوبة مثل الجاه والمال .

أمّا القوى الحيوانية فهي الشاغلة بخوف ، أو حزن ، أو غضب ، أو شهوة ، أو خيانة ، أو خجل ، أو غيرة أو انتظار لشدّة ، أو أمل بظفر على عدو ، أو حذر من مؤلم .

امّا الأفكار المجازية الشاغلة فهي بالتفكّر في أُمور غير مهمّة ، أو مسائل علمية غير نافعة ، وبالجملة إنّ الشواغل للنفس هي كل ما يحجب الاشتغال بها عن الوصول إلى المطلوب .

فالخلوة : هي عبارة عن إزالة جملة هذه الموانع .

فعلى صاحب الخلوة أن يختار موضعاً لا شاغل له فيه من المحسوسات الظاهرية والباطنية وأن يذلّل القوى الحيوانية فيه بالرياضة حتى لا يمكن لها أن تجذب صاحبها إلى ما يلائمها أو تدفعه عمّا لا يلائمها ، وأن يعرض عن الأفكار المجازية غير النافعة بتاتاً وهي كل فكر غايته المصالح المعاشية الفانية .

أمّا المصالح الأُخروية « مصالح المعاد » فإنّ غايتها حصول اللذّة الباقية لنفس طالب الكمال . فإذا ما زالت تلك الموانع الظاهرة وطهر الباطن من الانشغال بغير الله تعالى لزم الاقبال بجوامع النيّة وتمام الهمّة على ترصّد السوانح الغيبية وترقّب الواردات الحقيقية . وهذا هو التفكّر الذي سنذكره في الفصل الآتي .

الفصل الثاني

في التفكّر:

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1].

التفكّر وإن تعدّدت تعاريفه واختلفت تفاسيره فإنّ مفاد الجميع هو أنّ التفكّر سير باطن الإنسان من المبادي إلى المقاصد ومثله النظر في اصطلاح العلماء.

وحيث أنه لا يتسنّى لأحد الخروج من درجة النقصان إلى مرتبة الكمال إلّا بالسير فقد قالوا: إنّ أوّل الواجبات هو التفكّر والنظر.

وقد ورد في القرآن الكريم من الحثّ على التفكّر ما لا يحصيه هذا المختصر ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] وفي الحديث[3]: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ

---

(١) سورة الروم الآية: ٨.

(٢) سورة الرعد الآية: ٣.

(٣) راجع كتاب مفاتيح الغيب ص٣٠٢، وكتاب رياض السالكين ج٣ ص٣٧٠، وكتاب العرشية ص٢٨٧، وكتاب تفسير شاهي بالفارسية ج١ ص٢٣٤، وكتاب خلاصة المنهج ج٣ ص٨٥.

سَبْعِينَ سَنَةٍ » .

ويجب أن يعلم أنّ مبادي السير التي منها يجب أن تبدأ الحركة هي الآفاق والأنفس . والسير هنا هو الاستدلال من آياتهما أي من الحكمة الظاهرة في كل ذرّة من ذرّات هذين الكونين على عظمة مبدعهما وكماله لكي يشاهد نور إبداعه في كل ذرّة من تلك الذرّات ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

ثمّ بعد ذلك يستشهد ذلك السالك من حضرة جلاله على كل ما سواه من المبدعات ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2]. حتى ينكشف لديه تجلّي ذاته وظهوره في كل ذرّة من ذرّاتها .

أمّا آيات الآفاق فإنّها تحصل من معرفة ما عدا الله من الموجودات كما هي ومعرفة حكمة وجود كل منها حسب استطاعة الإنسان مثل علم الهيئة « هيئة الأفلاك » والكواكب وحركاتها وأوضاعها ومقادير أجرامها وتأثيرها . وهيئة العالم السفلي وترتيب العناصر وتركيبها وتفاعلها بحسب الصور والكيفيات ، وحصول الأمزجة وتركيب المركّبات المعدنية والنباتية والحيوانية ، ومعرفة النفوس السماوية والأرضية ومبادي حركات كل منها ، وكل ما هو واقع فيهما ومنهما من مباينات ومخالفات وخواص ومشاركات وما

---

(١) سورة فُصّلت الآية : ٥٣ .

(٢) سورة فُصّلت الآية : ٥٣ .

يتعلّق بها من علوم اعداد ومقادير ولواحقها .

وأمّا آيات الأنفس فهي بمعرفة الأبدان والأنفس وذلك بواسطة علم التشريح للأعضاء المفردة من عظام وعضلات وأعصاب وعروق ومنافعها ، وتشريح الأعضاء المركّبة كالأعضاء الرئيسية والخادمة وآلاتهما والجوارح ومعرفة قوى كل منها وأحوالها وأفعالها كالصحّة والمرض ، ومعرفة النفوس وكيفية ارتباطها بالأبدان وفعلها وانفعالها وأسباب النقصان والكمال في كل منهما ، ومقتضى سعادتهما وشقائهما الآجلين أو العاجلين وما يتعلّق بذلك .

وكل هذه الأُمور المتقدّمة هي مبادىء السير المسمّاة بالتفكّر أمّا المقاصد وما ينتهي إليه السير فسنذكره في آخر الفصول والأبواب وهو الوصول إلى منتهى مراتب الكمال .

الفصل الثالث

في الحزن والخوف:

قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

قال العلماء: الحزن على ما فات، والخوف ممّا لم يأت.

فالحزن هو التألّم الباطني لوقوع مكروه يتعذّر دفعه أو فوات فرصة، أو أمر مرغوب فيه يتعذّر تلافيه.

والخوف هو التألّم الباطني لتوقّع مكروه تكون أسباب حصوله ممكنة الوقوع، أو لتوقّع فوات مطلوب مرغوب فيه يتعذّر تلافيه، أمّا إذا كانت أسباب حصول الشيء معلومة الوقوع أو مظنونة بالظن الغالب سمّي «انتظار المكروه» ويكون فيه تألّم كثير. وإذا علم تعذّر وقوع الأسباب وكان التألّم حاصلاً سمّي «خوفاً» سببه الماليخوليا.

أمّا أرباب السير والسلوك فإنّ خوفهم وحزنهم لا يخلوان من فائدة، فالحزن إذا كان بسبب ارتكاب المعاصي أو فوات زمن العبادة أو ترك السير في طريق الكمال فإنّ كل ذلك يوجب تصميم

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٧٥.

عزم السالك على التوبة . وكذلك الخوف فإنه إذا كان بسبب اقتراف الذنوب أو النقصان عن الوصول إلى درجة الأبرار كان ذلك ممّا يوجب الجدّ والاجتهاد في اكتساب الخيرات والمبادرة إلى السلوك في طريق الكمال ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾[1]. وإنّ الخالي من الخوف والحزن في مثل هذا المقام يعدّ قاسياً : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2] وكل أمن حاصل من زوال الخوف في هذا المقام يكون سبباً للهلاك . ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3].

أمّا أهل الكمال والواصلون إلى الغاية فهم من هذا الخوف والحزن مبرّؤن ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4].

أمّا الخشية والخوف فهما وإن اتّفقا معنىً في عرف اللغة ولكن في عرف هذه الطائفة يختلفان اختلافاً بيّناً وذلك أنّ الخشية تختص بالعلماء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[5] ثم اختصاص الجنّة بهم ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[6] وهم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

(١) سورة الزمر الآية : ١٦ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٢٢ .

(٣) سورة الأعراف الآية : ٩٩ .

(٤) سورة يونس الآية : ٦٢ .

(٥) سورة فاطر الآية : ٢٨ .

(٦) سورة البيّنة الآية : ٨ .

يَحْزَنُونَ﴾[1].

فالخشية إذاً هي استشعار بالخوف في النفس بسبب الشعور بعظمة الحقّ وهيبته والوقوف على نقصان النفس وقصورها عن عبادة الحقّ أو تخيّل ترك الأدب في العبودية أو الإخلال بالطاعة الواجبة.

فالخشية على هذا هي خوف خاص كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوَءَ ٱلْحِسَابِ﴾[2].

أمّا الرهبة فهي قريبة من الخشية قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[3].

أمّا السالك فهو إذا ما بلغ درجة الرضا تبدّل خوفه أمناً ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[4] إذ ليس لمكروه عنده كراهية ولا رغبة له لمطلوب، وهذا الأمن يكون مسبّباً عن الكمال كما أنّ ذلك الأمن المذكور يكون مسبّباً عن النقصان.

أمّا صاحب هذا الأمن المسبّب عن الكمال فلا يخلو من خشية حتّى يتجلّى بنظر الوحدة، وعندئذ لا يبقى لديه أثر من الخشية لأنّ الخشية من لوازم التكثّر.

---

(١) سورة يونس الآية: ٦٢.

(٢) سورة الرعد الآية: ٢١.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٥٤.

(٤) سورة الأنعام الآية: ٨٢.

الفصل الرابع

في الرجاء:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[1] إذا كان المطلوب متوقّع الحصول في المستقبل والطالب يظن تحصيل أسبابه فالفرح الحاصل في الباطن من تصوّر حصول المطلوب ممزوجاً بتوقّع حصوله يسمّى « رجاء ».

وإذا كانت الأسباب متيقّنة الحصول والمتوقّع واجب الوقوع في المستقبل سمّي « انتظار المطلوب » وعلى هذه الصورة يكون ذلك الفرح المرجو أكثر.

فإذا لم تكن أسباب الحصول معلومة ولا مظنونة فذلك « التمنّي » أمّا إذا كان حصول أسباب الوقوع معلوم التعذّر أو مظنونه في المستقبل ومع ذلك كان يتوقّع حصوله سمّي « رجاء المغرورين والحمقاء ».

ثمّ إنّ الرجاء والخوف أمران متقابلان، وللرجاء لدى أهل

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢١٨.

السلوك فوائد كثيرة كالخوف ، لأنه باعث على الترقّي في درجات الكمال وسرعة السير في طريق الوصول إلى المطلوب . قال الله تعالى : ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾[1]. كما أنه يوجب حسن الظن بعفو الله ومغفرته والثقة برحمته ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[2] وقال تعالى في حصول المطلوب بموجب ذلك التوقّع ـ أنا عند ظنّ عبدي بي ـ ولكن عدم الرجاء في هذا المقام يكون من بواعث اليأس والقنوط ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[3]. وقد صار إبليس بسبب هذا اليأس هدفاً للعنة الأبدية . وقد قال الله سبحانه : ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[4].

أمّا إذا بلغ السالك مرتبة المعرفة فقد انتفى رجاؤه وذلك لعلمه أنّ ما ينبغي له قد وصل إليه ، وما لم يصل إليه لا ينبغي أن يكون له . ومع هذا التصوّر إن بقي الرجاء معه فهو إمّا أن يعود إلى الجهل بجميع ما ينبغي وما لا ينبغي ، أو إلى الشكاية من مسبّب الأسباب من جهة حرمانه من المطلوب .

وقد علم من هذا الفصل والفصل السابق عليه أنّ السالك ما دام في سلوكه لا يخلو من الخوف والرجاء معاً . قال تعالى : ﴿يَدْعُونَ

---

(١) سورة فاطر : ٢٩ ـ ٣٠ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢١٨ .

(٣) سورة يوسف الآية : ٨٧ .

(٤) سورة الزمر الآية : ٥٤ .

رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[1] إذ يلزم من استماع آيات الوعد والوعيد والتفرّس في دلائل النقصان والكمال وتوقّع وقوع كل منهما بدلاً عن الآخر مع تصوّر انتهاء السلوك بالوصول إلى المقصد أو الحرمان منه أن يقرن الخوف بالرجاء.

ولا مرجّح لأحد الطرفين على الآخر ـ لو[2] وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ـ فلو رجح عنده الرجاء على الخوف لزم أن يكون الأمن في غير محلّه ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾[3]. ولو رجح الخوف على الرجاء لزم اليأس الموجب للهلاك ﴿إِنَّهُ لَا يَأْيْئَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[4].

---

(١) سورة السجدة الآية: ١٦.

(٢) العبارة في كتاب إرشاد القلوب للديلمي هكذا: كما روى، لو وزن خوف العبد ورجائه لم يرجح أحدهما على الآخر. ج١ ص١١ ط منشورات الرضي سنة ١٤١٢هـ قم المقدّسة.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٩٩.

(٤) سورة يوسف الآية: ٨٧.

الفصل الخامس

في الصبر:

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(١).

الصبر لغة هو حبس النفس عن الجزع عند وقوع المكروه بمنع الاضطراب الباطني وردع اللسان عن الشكاية وحفظ الأعضاء عن الحركات غير الاعتيادية.

وللصبر ثلاثة أنواع:

الأول: صبر العوام وهو حبس النفس على سبيل التجلّد وإظهار الثبات في التحمّل بحيث يكون ظاهر حاله مرضياً عند العقلاء وعامّة الناس. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِراً مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾(٢).

الثاني: صبر الزهّاد والعبّاد وأهل التقوى والحلم توقّعاً لثواب الآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٤٦.

(٢) سورة الروم الآية: ٧.

(٣) سورة الزمر الآية: ١٠.

الثالث: صبر العارفين، وذلك لأنّ بعضهم قد يلتذّ بتحمّل المكروه لتصوّره أنّ الله قد خصّه به دون عباده فكان بذلك ملحوظاً للمعبود. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[1].

وقد ورد في الأخبار[2]: أنّ جابر بن عبدالله الأنصاري وهو من أكابر الصحابة لمّا ابتلى بضعف الشيخوخة وبان فيه العجز عاده الإمام الباقر عليه السلام وسأله عن حاله فقال: إنّي يابن رسول الله في حالة أرى فيها الشيخوخة أحبّ إليّ من الشباب والمرض من الصحة والموت من الحياة. فقال له الإمام عليه السلام: أمّا أنا فإن أعطيت الشيخوخة فهي أحبّ إليّ من الشباب وإن كنت شاباً فالشباب أحبّ إلى قلبي من الشيخوخة وإن كنت مريضاً فالمرض محبوبي وإن

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) وروي أنّ جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه ابتلي في آخره بضعف الهرم والعجز فزاره محمد بن علي الباقر عليه السلام فسأله عن حاله فقال أنا في حالة أحبّ فيها الشيخوخة على الشباب والمرض على الصحة والموت على الحياة فقال عليه السلام أمّا أنا ياجابر فإن جعلني الله شيخاً أحبّ الشيخوخة وإن جعلني شاباً أحبّ الشيبوبة وإن أمرضني أحبّ المرض وإن شفاني أحبّ الشفاء والصحة وإن أماتني أحبّ الموت وإن أبقاني أحبّ البقاء فلمّا سمع جابر هذا الكلام منه قبّل وجهه وقال صدق رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه ستدرك لي ولداً اسمه اسمي يبقر العلم بقراً كما يبقر الثور الأرض فلذلك سمّي باقر علم الأوّلين والآخرين أي شاقه.
الكليني بإسناده إلى أبي عبدالله عليه السلام مسكن الفؤاد للشهيد الثاني ص٨٨.

رزقت الصحة فهي أحبّ إليّ من المرض وإن قدّر لي الموت فهو أحبّ عندي من الحياة . فلمّا سمع جابر قول الإمام عليه السلام انكبّ عليه يقبّله وهو يقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال لي : سوف ترى أحد ولدي اسمه اسمي وهو يبقر العلم بقراً كما يبقر الثور الأرض . ولهذا سمّي الإمام محمّد بن علي ابن الحسين باقر علوم الأوّلين والآخرين .

وبمعرفة هذه المراتب يعلم : أنّ جابر كان في مرتبة أهل الصبر والإمام عليه السلام كان في مرتبة الرضا وسيأتي شرح الرضا فيما يلي .

الفصل السادس

في الشكر:

قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[1].

الشكر لغة الثناء على المنعم إزاء نعمه، وحيث أنّ جلّ النعم بل كلّها من الله تعالى فالأولى بالمرء الانشغال بشكره جلّت أياديه وعظمت آلاؤه.

وإنّ القيام بالشكر إنّما يكون بأُمور ثلاثة:

الأول: معرفة نعم المنعم وتشتمل عليها الآفاق والأنفس.

الثاني: الابتهاج والفرح بوصول تلك النعم إليه.

الثالث: الاجتهاد في تحصيل رضا المنعم حسب الاستطاعة والإمكان وذلك بمحبّته الباطنية والثناء عليه باللسان وتعظيمه حسبما يليق به قولاً وفعلاً والجهد بالقيام بما ينبغي القيام به بالنسبة إلى ذلك المنعم من مكافأة الطاعات أو الاعتراف بالعجز عن أداء واجبه من الشكر. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2] وفي

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤٥.

(٢) سورة إبراهيم الآية: ٧.

الخبر[1] : « الإيمانُ نِصْفانِ : نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ » . لأنّ السالك لا يخلو في كل حال من الأحوال عن أحد أمرين . ملائم وغير ملائم . فإن كان في أمر ملائم وجب عليه الشكر وإن كان في أمر غير ملائم وجب عليه الصبر .

وكما أنّ الصبر يقابله الجزع فإنّ الشكر يقابله الكفران والكفر نوع من الكفران . قال تعالى : ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2].

ومن هنا يعلم أنّ درجة الشكر أعظم من درجة الصبر . وحيث أنّ الشكر لا يحصل إلّا بالقلب واللسان والأعضاء التي هي أيضاً نعمة من نعم الله والقدرة على استعمال كل واحدة منها للشكر نعمة أُخرى فإنه إن أراد العبد أن يؤدّي شكر أي نعمة من نعمه تعالى فذلك أيضاً يحتاج منه إلى شكر آخر . فالجدير به أن يكون شكره بإظهار العجز في المبدأ والمنتهى ، فإنّ العجز عن الشكر والاعتراف به آخر مراتب الشكر كما أنّ الاعتراف بالعجز عن الثناء أكبر الثناء . وعلى

---

(١) أورده العلّامة المجلسي في البحار ج ٥٧ ص٢٦ ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان . ضمن تفسيره للآية ٣٢ من سورة إبراهيم (وسخّر لكم الفلك لتجري ...) .

وكذلك في كتاب جامع الأخبار لتاج الدين شعيري من أعلام القرن السادس .

فأسندنا الخبر عن رسول الله ﷺ قال : « الإيمان نصفان : نصف في الصبر ونصف في الشكر » . تحف العقول لابن شعبة الحرّاني من أعلام القرن الرابع ط بيروت مؤسّسة الأعلمي .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٧.

هذا قال النبي ﷺ[1]: « **لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك وفوق ما يقول القائلون** » .

أمّا الشكر عند أهل التسليم فإنه ينتفي لأنّ الشكر يشتمل على القيام بمجازاة المنعم ومكافأته وإذا بلغ السالك في مقام العبودية محلاً لا يجد فيه لنفسه موضعاً فكيف يقابل من هو الكل ، فتكون نهاية الشكر في حدٍ يرى السالك لنفسه وجوداً ولمنعه وجوداً وإذا لم يجد إلّا وجود المنعم فلا شكر .

---

(١) قد مرّ الاسناد في ص٤٨ .

الباب الرابع

في الأحوال التي تحدث
مقارنة للسلوك في السير
حتّى الوصول إلى المقصد

ويشتمل على ستة فصول:

١ ـ في الإرادة
٢ ـ في الشوق
٣ ـ في المحبّة
٤ ـ في المعرفة
٥ ـ في اليقين
٦ ـ في السكون

الفصل الأول

في الإرادة:

قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1].

الإرادة طلب الشيء وهي مشروطة بشروط ثلاثة:

١ ـ الشعور بالمراد.

٢ ـ الشعور بالكمال الحاصل للمراد.

٣ ـ غيبوبة المراد.

فإذا كان المراد من الأُمور التي يمكن تحصيلها للمريد وكانت الإرادة منضمّة إلى القدرة وجب حصوله.

وإذا كان من الأُمور الحاصلة الموجودة ولكنه لم يكن حاضراً فإنّهما يقتضيان الوصول إليه وإذا حصل توقّف في الوصول إليه فإنّ الإرادة تقتضي في المريد حالة تسمّى (الشوق) والشوق سابق على الوصول وإذا كان الوصول تدريجياً وحصل أثر منه سمّي (محبّة).

وللمحبّة مراتب آخرها تمام الوصول وانتهاء السلوك.

---

(١) سورة الكهف الآية: ٢٨.

أمّا الإرادة المقارنة للسلوك فهي على وجه واعتبار يقتضي السلوك لأنّ طلب الكمال نوع من الإرادة فإذا انقطعت الإرادة بسبب الوصول أو بسبب العلم بامتناع الوصول انقطع السلوك أيضاً.

وهذه الإرادة المقارنة للسلوك خاصّة بأهل النقصان. أمّا أهل الكمال فإنّ إرادتهم عين كمالهم ومحض مرادهم.

وقد ورد في الأخبار: أنّ في الجنّة شجرة تسمّى (شجرة طوبى) وإنّ كل ذي أمل أو مراد يعطى أمله ومراده من تلك الشجرة دون تأخير وانتظار وقيل أيضاً: إنّ بعض الناس يعطون الثواب في الآخرة على طاعاتهم في الدنيا وبعضهم يكون ثوابهم عين عملهم.

وهذا الكلام يؤكّد أنّ إرادة بعضهم عين مرادهم إذ من بلغ في سلوكه إلى مرتبة الرضا انتفت إرادته.

قيل إنّ بعض أكابر طالبي هذه المرتبة كان يقول: لو قيل لي ما تريد؟ أقول: أريد أن لا أريد.

الفصل الثاني

في الشوق:

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾[1].

الشوق، وجدان لذّة المحبّة التي هي من لوازم فرط الإرادة الممزوجة بألم الفراق. وهي ضروري لأهل السلوك إذا اشتدّت إرادتهم نحو المطلوب كما يحصل الشوق أيضاً قبل السلوك إذا ما حصل الشعور بكمال المطلوب ولم تنضم إليه القدرة على السير مع قلّة الصبر على المفارقة. وكلّما ترقّى السالك في سلوكه اشتدّ شوقه وقلّ صبره حتّى يصل إلى المطلوب فإذا وصل خلصت لذّته بنيل الكمال من شائبة الألم وانتفى الشوق.

وقد يدعون أرباب الطريقة مشاهدة المحبوب (شوقاً) وذلك باعتبار طلب السالك الاتّحاد به وبعد لم يحصل الوصول إلى تلك المرتبة.

---

(١) سورة الحج الآية: ٥٤.

الفصل الثالث

في المحبّة :

قال الله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ﴾[1].

المحبّة هي الابتهاج بحصول الكمال أو تخيّل حصوله مظنوناً أو محقّقاً في المشعور به ، وبعبارة أُخرى هي ميل النفس إلى ما يحصل عند الشعور به من لذّة أو كمال مقارن لذلك الشعور .

وحيث أنّ اللذّة هي إدراك الملائم أي نيل الكمال فالمحبّة إذاً لا تخلو من لذّة أو تخيّل لذّة .

وهي أي المحبّة قابلة للشدّة والضعف وأوّل مراتبها الإرادة إذ لا إرادة بلا محبّة ، وأمّا بعدها فما اقترن منها بالشوق أو بالوصول التام إلى المطلوب حيث ينتفي الشوق والإرادة وتكون المحبّة هناك غالبة وما دام بين الطالب والمطلوب من المغايرة أثر بمعنى أنّهما لم يتّحدا فالمحبّة ثابتة ، والعشق افراط المحبّة .

وقد يتّحدان ويتغايران بالاعتبار فإذا زال هذا الاعتبار انتفت

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

المحبّة .

إذاً فنهاية المحبّة والعشق وآخرهما هو الاتّحاد .

وقد قال الحكماء : إنّ المحبّة محبّتان ، فطرية وكسبية :

أمّا الفطرية فهي موجودة في جميع الكائنات ، ففي الفلك محبّة تقتضي حركته ودورانه ، وفي كل عنصر يطلب حيّزاً ومكاناً محبّة مرتكزة فيه لذلك المكان ، وهكذا المحبّة الأُخرى في الأحوال الطبيعية من وضع ومقدار وفعل وانفعال . وفي المركّبات كالمحبّة في المغناطيس لجذب الحديد ، وفي النباتات بصورة أكثر ممّا في المركبات لأنّها تتحرّك عن طريق النمو والاغتذاء وتحصيل البذر وحفظ النوع ، وفي الحيوان أكثر ممّا في النبات بمثل الأُلفة والأُنس بالمشاكل والرغبة في الازدواج والشفقة على الأولاد وبني النوع .

أمّا المحبّة الكسبية : فالأغلب كونها في النوع الإنساني وذلك لأسباب ثلاثة :

١ ـ وجود اللذّة فيه سواء كانت جسمانية وغير جسمانية وهمية أم حقيقية .

٢ ـ وجود المنفعة وهي إمّا مجازية كالمحبّة الدنيوية التي يكون نفعها بالعرض ، وإمّا حقيقة وهي التي يكون نفعها بالذات .

٣ ـ وجود المشاكلة الجوهرية وهي أيضاً إمّا عامّة كالتي بين شخصين متّفقين خلقاً وطبعاً مبتهجين ببعضهما في الأخلاق والشمائل والأفعال ، وامّا خاصّة كالتي تحصل بين أهل الحقّ مثل طالب الكمال للكامل المطلق .

ثمّ قد تتركّب المحبّة من بعض هذه الأسباب تركيباً ثنائياً أو ثلاثياً . وتبنى المحبّة على المعرفة أيضاً ، كما أنّ العارف مع ما أنّ اللذّة والمنفعة والخير كلّها تصل إليه من الكامل المطلق فإنه لتحصل له محبّة الكامل المطلق بأبلغ من غيرها من المحبّات وهنا يتّضح لك معنى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ﴾[1].

قال أهل الذوق : إنّ الرجاء والخشية والشوق والأُنس والانبساط والتوكّل والرضا والتسليم كل أُولئك من لوازم المحبّة لأنّ المحبّة مع تصوّر رحمة المحبوب تقتضي الرجاء ، ومع تصوّر هيبته تقتضي الخشية ، ومع عدم الوصول إليه يلزم الشوق ومع تصوّر الاستقرار بالوصول تقتضي الأُنس ، ومع إفراط الأُنس تقتضي الانبساط ، ومع الثقة بالعناية تقتضي التوكّل ومع استحسان كل أثر يصدر من المحبوب تقتضي الرضا ، وعند تصوّر المرء قصوره وعجزه مع كمال المحبوب وإحاطة قدرته يقتضي التسليم .

وبالجملة فإنّ المحبّة الحقيقية تحادد التسليم عندما يرى المحبوب هو الحاكم المطلق ويرى نفسه هي المحكومة على الاطلاق ، والعشق الحقيقي محادد مع الفناء إذ لا يرى سوى معشوقه ولا يرى نفسه قطّ .

وإنّ كل ما سوى الله لدى أهل هذه المرتبة حجاب ، إذاً فغاية السير يصل إلى حيث يعرض عن الكل ولا يتوجّه إلّا إليه تعالى وَإِلَى اللهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

الفصل الرابع

في المعرفة:

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

المعرفة هي الدراية، وهنا يراد منها أرقى مرتبة من مراتب معرفة الله إذ لمعرفة الله مراتب كثيرة. وَمَثَلُ تلك المراتب مَثَلُ النار فـإنّ معرفة بعض الناس بها هي سماعهم بأنّها شيء موجود ينعدم كل ما يصل إليه وأثره ظاهر في كل ما يجاوره ويحاذيه وان كلّ ما أخذ منه لا ينقصه وما انفصل عنه فهو مضادّه في الطبع وإنّ هذا الوجود يسمّى (ناراً). ويشبه هؤلاء في معرفة الله المقلّدون الذين يصدّقون أقوال أكابرهم دون أن يقفوا في ذلك على دليل.

وأرقى من هؤلاء مرتبة من يستدلّون بالدخان على وجود النار وَمَثل هؤلاء في المعرفة أهل النظر الذين يعرفون للعالم صانعاً بدليل آثار قدرته.

وفوق هذه المرتبة من يتحسّس حرارتها بالمجاورة وينتفع بتلك

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨.

الحرارة . ومثل هؤلاء في المعرفة المؤمنون بالغيب الذين يعرفون الله من وراء حجاب .

وأعلى من هذه المرتبة مرتبة من ينتفع من النار بمنافع أُخرى كالخبز والطبخ والانضاج وغيرها . وهؤلاء بمنزلة من التذّ بالمعرفة وابتهج بها . وما ذكرناه كلّه فهو من مراتب أهل المعرفة .

ثم أرقى وأعلى مرتبة هي مرتبة من يشاهد سائر الموجودات بتوسط نور هذه النار ، ومثل هؤلاء في المعرفة العارفون الذين تكون معرفتهم معرفة حقيقية . ثم من كان في المراتب فوق هذه المرتبة الأخيرة فهو من العارفين أيضاً ويسمّون بأهل اليقين .

وسنذكر اليقين وأهله فيما يلي .

ومن أهل اليقين من تكون معرفتهم بالمعاينة ويسمّون (أهل الحضور) ويختصّ بهم الأُنس والانبساط والفرح .

وهذه نهاية مراتب المعرفة حيث ينتفي فيها العارف كمن يحترق بالنار وينعدم .

الفصل الخامس

في اليقين :

قال الله تعالى : ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(١).

وفي الحديث : « مَنْ أُعْطِيَ الْيَقِينَ وَمَنْ أُوتِيَ حَظَّهُ مِنْهُ لاَ يُبَالِ بِمَا انْتَقَصَ مِنْ صَلوٰتِهِ وَصَوْمِهِ » .

اليقين في العرف هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع الثابت غير ممكن الزوال ، وهو في الحقيقة مؤلّف من العلم بالمعلوم والعلم بأنّ خلافه محال .

ولليقين مراتب ذكر الله تعالى منها في التنزيل ؛ علم اليقين ، وعين اليقين ، وحقّ اليقين .

قال الله تعالى : ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾(٢).

قال الله تعالى : ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾(٣).

ولتقريب المعنى نذكر لك النار التي ذكرناها في فصل المعرفة

---

(١) سورة البقرة الآية : ٤ .

(٢) سورة التكاثر الآية : ٥ ـ ٧ .

(٣) سورة الواقعة الآية : ٩٤ ـ ٩٥ .

مثلاً .

فإنّ مشاهدة الموجودات بواسطة نورها بمثابة (علم اليقين) ومعاينة جرمها المفيض بذلك النور على ما يقابلها بالاضاءة بمثابة (عين اليقين) .

وتأثير النار في كل ما يصل إليها حيث تنعدم هويته وتبقى النار صرفه هو بمثابة (حقّ اليقين) .

أمّا الجحيم فإنّها وإن كانت عذاباً ولكن بالنظر إلى أنّ نهاية الوصول إليها هو انتفاء لهوية الواصل فإنّ رؤيتها من قرب ومن بعد والدخول فيها حيث يقتضي انتفاء الغير ، تعدُّ مرتبة من المراتب بإزاء تلك الأُمور الثلاثة : **(والله أعلم بحقايق الأُمور)** .

الفصل السادس

في السكون:

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

السكون نوعان: خاص بأهل النقصان: وهو مقدّم على السكون ويكون صاحبه غافلاً عن المطلوب والكمال ويسمّى (الغفلة).

وخاص بأهل الكمال: وهو بعد السلوك ويكون عند الوصول إلى المطلوب ويسمّى (الاطمئنان).

أمّا الحالة التي تكون بين هذين السكونين فهي الحركة والسير والسلوك.

والحركة قبل الوصول من لوازم المحبّة والسكون من لوازم المعرفة المقارنة للوصول.

ولهذا قيل: لو تحرّك العارف هلك ولو سكن المحبّ هلك.

وأبلغ من ذلك قول بعضهم: لو نطق العارف هلك ولو سكت المحبّ هلك. هذا هو حال السالك حتّى يصل. والله أعلم.

---

(١) سورة الرعد الآية: ٢٨.

الباب الخامس

في الحالات التي تسنح
لأهل الوصول

وهو ستّة فصول:

١ ـ في التوكّل
٢ ـ في الرضا
٣ ـ في التسليم
٤ ـ في التوحيد
٥ ـ في الاتّحاد
٦ ـ في الوحدة

الفصل الأول

في التوكّل:

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

التوكّل لغة هو تفويض الأمر للغير، والمراد منه هنا تفويض العبد أمره إلى الله في الأفعال الصادرة منه والتي ستحدث له لأنّ له يقين بأنّ الله تعالى أعلم منه وأقدر، وهذا يسوقه إلى تفويض أمره إليه وتسليمه لقدره حتّى يعمل فيه حسب تقديره راضياً بما قدّره له أو يقدّره ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾(٢).

وهذا الابتهاج والرضا من العبد يحصل له إذا ما تأمّل في ماضي حاله حيث أخرجه تعالى بلا علم منه ولا دراية من العدم إلى الوجود وأودع في خلقته من الحكم التي لو أنفذ عمره كلّه في معرفتها لما استطاع أن يعرف جزءاً من ألف جزء منها، ثمّ كيف ربّاه في رحم أُمّه جنيناً وبعد أن أخرجه طفلاً فصبياً فشاباً فكهلاً فشيخاً ثمّ نعّاه بأُمور يتوقّف عليها حفظ وجوده وبقاء عيشه ثم كيف أوصله

---

(١) سورة المائدة الآية: ٢٣.

(٢) سورة الطلاق الآية: ٣.

من النقصان إلى الكمال وإنّ كل ذلك كان بلا التماس ولا مشاورة من العبد ليعلم أنّ ما يلزمه في المستقبل لابدّ أن يفعله ولا يخرج عن قدرته وإرادته فيعتمد العبد على المولى سبحانه ولا يضطرب في باقي عمره ويتيقّن أنّ ما أراده الله كائن سواء اضطرب العبد أم لم يضطرب لأنّ : « مَن انْقَطَعَ إلىٰ الله كَفاهُ اللهُ كُلَّ مَؤُنَتِهِ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَحتَسِبُ »(١).

بهذا وأمثاله يحصل الرضا ويحسن التوكّل .

وليس معنى التوكّل أن يرفع العبد يده عن كل عمل وفعل باعتقاد أنّ الله فاعل كل شيء بلا شرط وسبب وسعي من العبد ولكن بعد حصول اليقين له بأنّ كل ما هو غير الله فمن الله وبعد الاعتقاد بأنّ الكثير ممّا يقع في العالم هو بواسطة أسباب وشروط هو مسبّبها ، وأنّ قدرة الله وإرادته عندما تتعلّق بشيء دون شيء لا محالة يكون بشرط أو سبب مخصوص به دون غيره ، فيعدّ نفسه وإرادته وعلمه وقدرته كلّها أيضاً من جملة الأسباب والشروط المخصّصة لإيجاد بعض الأُمور التي ينسبها العبد إلى نفسه . فعليه إذاً أن يجدّ ويجتهد في تلك الأفعال التي تكون إرادته وقدرته من شروطها وأسبابها

---

(١) روضة الواعظين ج ٢ ص٤٢٦ ـ ٤٢٥ المجلس في ذكر التوكّل وبتفاوت يسير جاء في إرشاد القلوب ج ١ ص ١٢٠ الباب الخامس والثلاثون في التوكّل على الله ما نصّه ، قال رسول الله ﷺ : « من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنة ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها ، ومن أراد أن يرزقه الله من حيث لا يحتسب فليتوكّل على الله » .

كمن يكون واسطة في اتمام فعل يريده محبوبه أو مخدومه أو موجده.

فإذا كان الأمر كذلك اجتمع الجبر والقدر واتّحدا معاً لأنّ الفعل من العبد أن نسب إلى الموجد يتخيّل منه الجبر وان نسب إلى الشرط والسبب يتوهم منه القدر ولكن إذا نظر إليه بالنظر الصحيح رأى أنه لا جبر مطلق ولا قَدرَ مطلق وبهذا يتحقّق معنى ـ لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين.

فالعبد في أفعاله المنسوبة له يعلم أنّ تصرفه فيها بمنزلة تصرف الآلة لا بمنزلة تصرف الفاعل بالآلة.

وفي الحقيقة أنّ هذين الاعتبارين، أي اعتبار نسبة الفعل إلى الفاعل واعتبار نسبة الفعل إلى الآلة يتّحدان ويكون الكل من الفاعل من دون ترك الآلة توسطها فيه.

وهذا معنى دقيق في غاية الدقّة لا يصل إليه العبد إلّا برياضة القوة العاقلة وكل من يصل إلى هذه المرتبة يتيقّن أنّ مقدّر الموجودات كلّها واحد.

فكل أمر يريد الله أن يوجده يحدثه في وقت خاص وبآلة وشرط خاص، لا يؤثّر في إيجاده تعجيل في الطلب أو تأنٍّ فيه من العبد بل يعد نفسه هو أيضاً من جملة الأسباب في إيجاده. حتّى يخلص قلب المرء من التعلّق بكل أمر من أُمور العالم ويكون سعيه وجهده وجدّه في ترتيب ما يخصّه من الأُمور أكثر من غيره ويتصوّر حينئذ معنى

قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[1] فإذا بلغ ذلك عدّ من جملة المتوكّلين وكان مصداقاً لقوله تعالى : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2].

(١) سورة الزمر الآية : ٣٦.

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٥٩.

الفصل الثاني

في الرضا:

قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1].

الرضا: هو الابتهاج والسرور وهو ثمرة المحبّة ويقتضي عدم الانكار في الظاهر والباطن وفي القلب والقول والفعل.

وعند أهل الظاهر هو طلب رضا الله ليأمنوا غضبه وسخطه وعند أهل الحقيقة، أن يكونوا هم راضين عن الله تعالى وذلك بأن لا يختلف حالهم ولا يتغيّر طبعهم في أي حال من الأحوال الطارئة عليهم من الموت والحياة والبقاء والفناء والراحة والتعب والسعادة والشقاء والفقر والغنى بحيث لا يرجحون أحدها على ضدّها لعلمهم أنّ كل هذا من الله تعالى ولرسوخ محبّة الله في نفوسهم وطباعهم لا يطلبون مزيداً على ما قدّره لهم فهم راضون على كل حال تطرأ عليهم.

---

(١) سورة الحديد الآية: ٢٣.

روي عن أحد أكابر هذه المرتبة[1]: إنه كان قد بلغ السبعين من عمره وفي كل هذه المدّة لَمْ يَقُلْ لِشَيءٍ كَانَ: لَيْتَهُ لَمْ يَكُن وَلاَ لِشَيءٍ لَمْ يَكُن: لَيْتَهُ كَانَ.

وسئل أحدهم: ماذا وجدت في نفسك من أثر الرضا؟ فقال: إنّي لم تصل إلى مشامي رائحة من مراتب الرضا ومع ذلك فإنّي أرى أن لو جعلني الله جسراً على النار تعبر عليه الخلائق من الأوّلين والآخرين إلى الجنّة ثم إنّي ألقيت أنا وحدي في النار لم يخطر ببالي: لماذا كان حظّي وحدي بخلاف حظّ الآخرين.

وكل من تساوت لديه الأحوال المختلفة المذكورة ورسخت في طبعه، لا يكون مراده إلّا ما يقع. ومن هنا قالوا: إنّ كل ما يأتيه من الأحوال المختلفة لابدّ منها، فكل ما لابدّ منه يأتيه.

وإذا حقّقنا رأينا أنّ رضا الله حاصل عن العبد حين حصل العبد الرضا عن الله تعالى ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[2].

فما دام العبد يخطر بباله أن يعترض على أمر من الأُمور الواقعة أو أنه كان من الممكن خطور ذلك على ذهنه فإنه لا نصيب له من الرضا.

واعلم أنّ صاحب مرتبة الرضا لم يزل في ابتهاج وراحة إذ ليس

---

(١) وعن ابن مسعود: لأنّ الحس جمرةٌ أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن، لم يكن ليته كان. كتاب مسكن الفؤاد للشهيد الثاني ص٨٦ ط قم المقدّسة بصيرتي.

(٢) سورة المجادلة الآية: ٢٢.

عنده ، ينبغي ولا ينبغي بل ما ينبغي وما لا ينبغي عنده ينبغي ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]، ولذلك دعوا أبواب الجنّة « رضواناً » فقالوا : الرضا باب الله الأعظم ـ فكل من وصل إلى الرضا وصل إلى الجنّة ، وكل ما لم يفعله فإنّما هو بنور رحمة الله لم يفعله ـ وَٱلْمُؤْمِنُ[2] يَنظُرُ بِنُورِ الله ـ لأنّ الله تعالى موجد الكائنات إذا أنكر أمراً استحال وجوده وإذا لم ينكر أمراً من الأُمور فذلك دليل رضاه عن الجميع ، إذاً فينبغي أن لا يتأسّف المرء على ما فات وأن لا يفرح بما هو آت ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[3].

---

(١) سورة التوبة الآية : ٧٢.

(٢) رواه المحدّث أبي جعفر الصدوق ـ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المتوفّى سنة ٣٨١ بإسناده عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله عيون أخبار الرضا عليه السلام ج ٢ ص ٦١ الحديث ٢٥٠ ط قم المقدّسة سنة ١٣٦٣هـ ش .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٨٦ .

الفصل الثالث

في التسليم:

قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[1].

التسليم هو الايكال وهنا المراد منه ارجاع السالك كل ما هو منسوب إليه إلى الله تعالى.

وهذه مرتبة فوق التوكّل لأنّ المتوكّل على الله في أُموره بمثابة من يجعل الله تعالى وكيلاً فيها، فيرى تعلّقه بها باقياً وفي التسليم يقطع ذلك التعلّق ويحسب أنّ كل ما يتعلّق به من الأُمور فهو متعلّق بالله سبحانه وهذه مرتبة فوق مرتبة الرضا لأنّ الراضي في مرتبة الرضا يرى أنّ كل ما يفعله الله تعالى يوافق طبعه وفي هذه المرتبة لا يبقى له طبع حتى يكون له موافق ومخالف، فالطبع وما وافقه وما خالفه كلّه راجع إلى الله تعالى. وقوله عزّ من قائل في الآية: ﴿لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ إشارة إلى هذه المرتبة من

---

(١) سورة النساء الآية: ٦٥.

الرضا وقوله تعالى : ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ إشارة إلى التسليم الذي هو أرقى مرتبة من الرضا .

أمّا السالك المحقّق فإنه إذا نظر بنظر التحقيق لا يرى لنفسه ، حدّ الرضا ولا حدّ التسليم لأنه فيهما قد وضع لنفسه بإزاء الله تعالى مرتبة يكون فيها هو الراضي والحقّ مرضي عنه وهو المؤدّي والحقّ قابل عنه .

وكل هذه الاعتبارات منتفية في مقام التوحيد .

الفصل الرابع

في التوحيد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾[1].

التوحيد هو القول بالوحدة والعمل بها.

أمّا المعنى الأول فهو أوّل شرط من شروط الإيمان ومبدأ المعرفة يعني التصديق بأنّ الله واحد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2].

وبالمعنى الثاني هو كمال المعرفة الحاصل بعد اليقين، وذلك أنّ الموقن يوقن بأنه لا شيء في الوجود سوى الله تعالى وفيضه، وأنّ هذا الفيض ليس له وجود بانفراده فيقطع النظر عن الكثرة فلا يرى ولا يعلم إلّا واحداً فهو في سرّه يجعل الجميع واحداً ويصل من مرتبة «وحده لا شريك له في الآلهية» إلى مرتبة «وحده لا شريك له في الوجود».

وفي هذه المرتبة يكون كل ما سوى الله حجاباً دونه حتّى ليعد

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٣٩.

(٢) سوة النّساء الآية: ١٧١.

النظر إلى غير الله شريكاً مطلقاً.

ويقول بلسان الحال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

(١) سورة الأنعام الآية: ٧٩.

الفصل الخامس

في الاتّحاد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

التوحيد جعل الشيء واحداً والاتّحاد صيرورة الشيئين شيئاً واحداً فهناك ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ﴾[2] وهنا ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ﴾ لأنّ في التوحيد شائبة تكلّف ليست في الاتّحاد.

فإذا صارت الوحدة مطلقة وفي الضمير راسخة بحيث لا يلتفت إلى الاثنينية كان هناك الاتّحاد.

وليس معنى الاتّحاد كما توهّمه القاصرون في النظر من أن يتّحد العبد مع المولى تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. بل معناه أنّ الكل يرونه بلا تكلّف القول، بأنّ كل ما هو غير الله فمن الله، فالكل واحد، بل لو تبصّر المرء بنور تجليه تعالى لا يرى غيره فلا يكون هناك عين ولا ناظر ولا نظر ويكون الكل واحد.

وكان من دعاء منصور بن الحسين الحلّاج قال:

---

(١) سورة القصص الآية: ٨٨.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٣٩.

بَيْنِي وَبَـيْنَكَ إنـيَّ يُـنـازِعُنِي فَارْفَعْ بِفَضْلِكَ اِنيّي مِنَ الْبَيْنِ[1]

فاستجيب له وارتفعت انّيّته حتّى تمكّن من القول :

(أَنَـــا مَـنْ اهْـوىٰ وَمَـنْ اهْـوىٰ أَنَـا)

وفي هذا المقام يُعلم أنّ من قال « أنا الحقّ » ومن قال « سبحاني ما أعظم شأني » لم يدعِ الأُلوهية بل نفى الانّية عن نفسه وأثبتها لغيره وهو المطلوب

* * *

(١) كتاب الأسفار لصدر المتألّهين ج١ ص١١٦ ، ورسالة سير وسلوك للعلّامة بحر العلوم ص٩٨ ط الأُولى جمادى الأُولى سنة ١٤٠٢هـ ق انتشارات حكمت .

الفصل السادس

في الوحدة:

قال الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1].

للوحدة معنى فوق الاتّحاد الذي معناه جعل الشيئين شيئاً واحداً إذ يستشمّ منه الكثرة ولا شائبة من هذا الشم في الوحدة.

ففي الوحدة ينعدم كل من الحركة والسكون والفكر والذكر والسير والسلوك والطلب والطالب والمطلوب والنقصان والكمال حيث: إذا بلغ الكلام إلى الله فامسكوا.

---

(١) سورة غافر الآية: ١٦.

الباب السادس

في الفناء

في الفناء

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1].

قلنا في الوحدة أن لا سالك هناك ولا سلوك ولا سير ولا مقصد ولا طلب ولا طالب ولا مطلوب ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وإثبات هذا الكلام وبيانه ونفيه أيضاً لا يكون والنفي والإثبات متقابلان والاثنينية مبدأ الكثرة فلا إثبات هناك ولا نفي كما أنه ليس هنا نفي النفي ولا إثبات الاثبات ولا إثبات النفي ولا نفي الاثبات وهذا ما يسمّونه الفناء ويكون معاد الخلق مع الفناء كما أنّ مبدأهم كان من العدم ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[2] ولمعنى الفناء حدّ مع الكثرة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[3] بل ولا فناء بهذا المعنى أيضاً وهنا ينتفي كل ما يأتي في النطق وكل ما يحصل في الوهم أو يصل إليه العقل.

---

(١) سورة القصص الآية: ٨٨.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٩.

(٣) سورة الرّحمٰن الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

إليه يرجع الأمر كلّه

هذا ما أردنا بيانه وإيراده في هذا المختصر وإلى هنا ينقطع الكلام وَالسَّلامُ عَلىٰ مَن اتَّبَعَ ٱلْهُدىٰ [وَ] سُبحـانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَـمّـا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى ٱلمُرسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العـالَمِينَ وَٱلصَّـلوٰةُ والسَّلامُ عَلىٰ سَيِّدِنـا مُحمَّدٍ وَآلِهِ ٱلطّـاهِرِين الطَّيِبِينَ الَّذين هُمْ نُقِلُوا مِنْ أصْلابِ الطّـاهِرِين إلىٰ أَرْحـامِ المُـطهّرٰاتِ وَالَّـذِينَ أَذْهَبَ الله عَنْهُمُ ٱلرِّجسَ وَطَهَّرهُم تَطْهِيراً .

* * *

ولقد كمل تعريبه وتمّت مقابلته مع الأصل بكل دقّة واعتناء في يوم ١٠ من شهر جمادى الأُولى من شهور سنة ١٣٦٩هجرية على مهاجرها آلاف التحية ، على يد معرّبها الراجي عفو ربّه في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم . محمّد بن الصادق بن الباقر بن الخليل الطبيب الخليلي في النجف الأشرف طالباً به مرضاة الله تعالى ونفع الإنسانية والحمد لله أولاً وأخيراً .

محمّد الخليلي

١٠ جمادى الأُولى سنة ١٣٦٩

الخاتمة

قال سدير الصيرفي[1]: كنت عند الإمام جعفر عليه السلام فقدّم إلينا طعاماً ما أكلت طعاماً مثله قطّ فخفت أن يكون من النعيم الذي يسألنا الله عنه ﴿لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾. فضحك حتّى بدت نواجذه ثمّ قال: لا تسأل عن طعام طيّب ولا ثوب ليّن ولا رائحة طيّبة بل لنا خلق وله خلقنا ولنعمل فيه بالطاعة.

اللّهُمّ إنّا نَرْغَبُ إلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ
تُعِزُّ بِهَا الأَسلاَمَ وَاَهْلَهُ وَتُذِلُّ بِهَا النِّفاقَ وَاَهْلَهُ
وَتَجْعَلُنا فِيها مِنَ الدُّعاةِ الىٰ طاعَتِكَ وَالْقَادَةِ إلى سَبِيلِكَ
وَتَرْزُقُنا بِها كَرامَةَ الدُّنْيا وَالأَخِرَةِ

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

---

(١) تفسير فرات الكوفي ص٦٥٦ الحديث ٧٦٣.

فهرس الكتاب

مقدّمة التحقيق	٩
المدخل	١٠
العلّة التي من أجلها صار في الناس من هو خير من الملائكة وصار فيهم من هو شرّ من البهائم	١١
النفس وأسماؤها وقواها الأربع	١٢
بازاء كل واحدة من القوى الأربع لذّة وألم	١٩
ايقاظ فيه موعظة ونصيحة	٢٤
تمهيد حول المؤلّف	٢٨
سطور عن حياة الإمام المحقّق الطوسيّ	٣٤
مولده ووالده	٣٤
مشايخه	٣٤
هجرته	٣٥
أكاديميّته	٣٧
تلامذته	٣٨
مؤلّفاته	٣٨
مكانته	٣٩

عملنا في الكتاب ٤٠
صورة الصفحة الأُولى من النسخة الخطيّة ٤٣
صورة الصفحة الأخيرة من النسخة الخطيّة ٤٤
مقدّمة المترجم ٤٥
مقدّمة المؤلّف ٤٨
الشروع في الكلام ٥١

الباب الأوّل
في مبدأ الحركة وما لابدّ منه لتسيير الحركة
٥٣ـ٦٧

الفصل الأوّل
في الإيمان ٥٥

الفصل الثاني
في الثبات ٥٨

الفصل الثالث
في النيّة ٦٠

الفصل الرابع
في الصدق ٦٢

الفصل الخامس
في الانابة ٦٤

الفصل السادس
في الإخلاص ٦٦

الباب الثاني
في إزالة العوائق وقطع الموانع من السير والسلوك
٦٩ـ٨٨

الفصل الأول

في التوبة ٧١

الفصل الثاني

في الزهد ٧٨

الفصل الثالث

في الفقر ٨٠

الفصل الرابع

في الرياضة ٨٢

الفصل الخامس

في المحاسبة والمراقبة ٨٤

الفصل السادس

في التقوى ٨٧

الباب الثالث
في السير والسلوك في طلب الكمال
وبيان أحوال السالك
٨٩ـ١٠٨

الفصل الأول

في الخلوة ٩١

الفصل الثاني
في التفكّر ٩٤
الفصل الثالث
في الحزن والخوف ٩٧
الفصل الرابع
في الرجاء ١٠٠
الفصل الخامس
في الصبر ١٠٣
الفصل السادس
في الشكر ١٠٦
الباب الرابع
في الأحوال التي تحدث مقارنة للسلوك في السير
١٠٩ ـ ١٢١
الفصل الأول
في الإرادة ١١١
الفصل الثاني
في الشوق ١١٣
الفصل الثالث
في المحبّة ١١٤
الفصل الرابع
في المعرفة ١١٧

الفصل الخامس
في اليقين ١١٩
الفصل السادس
في السكون ١٢١
الباب الخامس
في الحالات التي تسنح لأهل الوصول
١٢٣ـ١٣٨
الفصل الأول
في التوكّل ١٢٥
الفصل الثاني
في الرضا ١٢٩
الفصل الثالث
في التسليم ١٣٢
الفصل الرابع
في التوحيد ١٣٤
الفصل الخامس
في الاتّحاد ١٣٦
الفصل السادس
في الوحدة ١٣٨

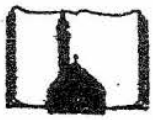

The Open School
P.O. BOX 53573
CHICAGO, IL 60653-0398